حايك المبكى

عنوان الكتاب: حائط المبكى
اسم المؤلف: عزالدين جلاوجي
الطبعة: الثانية
منشورات المنتهى، السداسي الأول 2016
ردمك: 978-9931-610-22-9

كل الحقوق محفوظة

دار المنتهى
للطباعة والنشر والتوزيع- الجزائر
0663186822

عزالدين جلاوجي

حائط المبكى

روايـة

الإهداء

إليكِ سيدتي

.....

واقف عند العتبات

أستجدي البركات

يا أميرة البهاء

والحسن والنقاء

امنحيني من دواليك كأسا

اسقيني من رفيك همسا

شكليني بالبياض وبالسواد

وبما شئت من ألوان الوهاد

لوحة للخلوْ

سهما لا يعوْ

مُترع بالعشق حد الممات

مثخن بالحلم والأمنيات

.....

1

ظلت ملامحها تحاصرني بشكل مدهش، سعيت أول الأمر أن أتحداها وأنا أنقل طرفي بين عشرات الطلبة الذين اكتظ بهم النادي، غير أني ما أكاد أغوص في تفاصيل وجه من الوجوه حتى أعود إليها، سمرتها النضرة، عيناها السوداوان الواسعتان وقد تغشاهما ذبول، حاجباها المعقوفان كخطاف أعياه التجديف في الفضاء البعيد، أهدابها الأشبه بجناحي فراشة سوداء نادرة، شعرها الحالك الذي عصمته بخيط أبيض طويل، ابتسامتها البريئة التي ظلت توزعها على كل من يحيِّيها أو حتى يمر قريبا منها، شفتاها اللتان كانت تداعب بهما فنجان القهوة الساخن، ملابسها الخريفية الأنيقة، كل ذلك ظل يحاصرني، يسرقني من عشرات الملامح المختلفة، يفرض علي أن أنصت إلى صمته، إلى موسيقى ابتسامته.

نسيت حتى قهوتي التي استسلمتْ لنسمات الهواء الباردة، ورحت وأنا أخزن ملامحها في ذهني أداعب بأصابعي ذؤابة الشعر التي تدلت أسفل شفتي السفلى حتى نهاية ذقني، والتي حرصت على أن أعتني بها فتكون متميزة عن كل ما رأيت.

حين انحدرت عيناي إلى جيدها تلامعت بين عيني مئات الصور لرقاب منحورة، هل تصلح هذه الفاتنة للحب أم للذبح؟ أفكار شيطانية راودتني، تغلبت عليها سريعا، ليشرق جيدها المدثر الجانبين بخصلات من شعرها الساخر من الشريط الأبيض، المبتسم للقرط الطويل الذي ظل يتأرجح دون توقف، على إيقاع حركات رأسها الكثيرة التي جعلت منها أشبه ما تكون

بعندليب حذر.

سنوات عشر مرت ظللت أتردد فيها على هذا المكان، أجلس في النادي، في الحديقة، اعتكف في المكتبة استدر كتب الفن، أمارس في المرسم جنوني الفني، أعزف الموسيقى، أرقص أحيانا، أتحدى الحياة، أريد أن أحياها بإيقاعي، قابلت مئات الجميلات، أبدا لم أهتز من أعماقي كما وقع لي اللحظة، أي سحر تحمله هذه الملاك السماوي؟ وأي عبق صوفي آسر يجذبني إليه؟

وأغمضت فجأة عيني وأنا أسند ظهري إلى النافذة المطلة على الحديقة الكبيرة، كنت أعصر ملامحها كأني أستدر حبة برتقال شهية، وهي حالة لم تسكنّي من قبل مع كل الملامح التي رسمتها، العادة أن أسمح لها بالاختمار في ذهني أياما وربما شهورا، هذه السمراء المدهشة المارقة عصفت بكل عاداتي، وراحت عشرات الوضعيات للوحتها تصر على الحضور، وظللت أطارد ملمح الجيد المذبوح، لينتصب في خيالي مرمريا لا شية فيه، وراحت الصورة تسفر عن نفسها، صورة متعددة، أو صورة الصور كما أسميها، وظلت أصابعي تعبث بشعري الكث الحالك، تمشطه إلى الأعلى ثم تضغطه، وتعيد الكرة حتى تصير جذوره لاسعة كاللإبر، إنه الحلول الرهيب الذي كنت أمارسه دوما عند كل مغامرة جديدة.

حين فتحت عيني لم تكن في مكانها، لكن ابتسامتها ظلت تومض حيث كانت، أحسستها ساخرة مستهزئة، فركت عيني مرارا، كان كرسيها شاغرا باردا، وظل فنجانها قابعا حيث تركته، لكن حزنا شديدا كان قد جلله، سمعته يتأوه، يستنجد، نقلت طرفي في النادي كاد يخلو من الطلاب، هممت أن أخرج بحثا عنها، لكني تراجعت وأنا أسرع إلى فنجانها أستخلصه لنفسي،

تشممت رائحته العطرة، وأنا مولع بالقهوة، ثم وضعته إلى جوار فنجاني، استويت في جلستي، أخرجت ورقة رسم كبيرة وقلم رصاص، وانهمكت أعبث بالخطوط، فتعبث هي بملامحي تبسما وتكشيرا، أُميل رأسي إلى كل الاتجاهات، وأغير وضعية الورقة في كل مرة، واستوت الملامح أخيرا، عرضت الصورة على زجاج النافذة فاخترقها الضوء، ومنحها إشراقا وقوة، خلا النادي من كل رواده، وراح النادل يحدث جلبة بالكراسي يعيد ترتيبها، كأنما يطردني بطريقته.

في حديقة مدرسة الفنون الجميلة تناثر الطلبة على كراسيها استعدادا لمغادرتها، وقد بدأت أشعة الشمس تنسحب باتجاه الغروب، من بعيد لمحتها تجلس وحيدة تحتضن محفظتها الزيتية المنسجمة مع لون قميصها وحذائها، اندفعت إليها بحذر حتى لا أزعج لحظات تأملها، وقد كان رأسها يستوى على عرش كفها متأملة الفضاء الممتد أمامها، وضعت اللوحة التي رسمتها في حجرها وانسحبت مبتعدا.

كأنما أحسها اللحظة سمفونية ترفرف بي في الهواء، كل ما حولي يرقص ويطير، كل الفنون لا يمكن أن تروي ظمئي للذي لا أعرفه، لا أقبض عليه، اللوحة عاجزة، والسمفونية عاجرة، ولغة الشعر عاجزة، وحتى الصمت عاجز أيضا.

سأرسم الليلة، وأعزف على العود، وأسمع لكمان صديقتي المراكشية المدهشة، سأقرأ شعر المجنون وابن زيدون بصوت مرتفع حتى يسمعني أهل الحجاز والأندلس.

2

ماكدت أتمدد في سريري حتى قفزت أمام عيني عشرات اللوحات للفتاة السمراء، مختلفة الأشكال والأبعاد، متزاحمة تأبى إلا أن تجد طريقها إلى التجسيد، وبدا لي رأسها مفصولا عن جسدها وقد امتلأ دماء، استدرت في مكاني، تمددت على بطني، ضغطت على عيني أمنع تسلل تلك الصور الشنيعة إلي، دون جدوى، هي حالات تنتابني من حين لآخر، تزلزلني من الأعماق، تثير في نفسي الرعب، حتى أرتجف وأتفصد عرقا، أصرخ في أعماقي، لست سفاحا، أرغب في الصراخ بالجملة حتى يسمعني الكون كله، لكني لا أستطيع، شيئا فشيئا أهدأ، شيئا فشيئا أطرد كل شياطين الجريمة.

ما الذي يجعلني أفكر فجأة في قتل هذه السمراء المدهشة؟ وفي فصل رأسها عن جسدها كما يُفعل بجثة أي حيوان؟ لم تخلق إلا للحياة، لم تخلق إلا لتزرع عيوننا وقلوبنا فرحا وبهجة، وتردد صدى الوحش في أعماقي، اقطع رأسها أيها القذر، وهي الصرخة ذاتها التي ظلت لسنوات تتردد في أعماقي كأنما أسمعها لأول مرة.

ذات خريف ماطر كنت أقف عند قارعة الطريق، متضايقا من البلل الذي أثقل كل ثيابي، وأنا أحاول يائسا إصلاح العطب الذي عصف بسيارتي البائسة، ليس أمامي إلا عشرون كيلومترا سأقطعها وسط غابة كثيفة من أشجار الصنوبر والبلوط، يقينا لن تقهر شابا في الخامسة والعشرين يتمتع ببنية رياضية صلبة، وأنا العارف بالطريق، وقد قطعتها

مرارا، لكن غزارة الأمطار وزحف العشية التي شرعت تطارد نور الشمس كان أكبر من كل ذلك، وفاجأتني سيارة رباعية الدفع وهي تقف أمامي فجأة، وسريعا قفزت داخلها، لم يعرني السائق اهتماما كبيرا، واندفع بسيارته كأنما يطارد بها سيول الأمطار المنهمرة، اعتدلت في جلستي، وقد تسلل البلل إلى كل جسدي، من بعيد تراءت لنا سيارة بيضاء تسير على مهل، أشار إليها دون أن ينطق، أعاد ترتيب نظارته السوداء على عينيه، أشرق وجهه عن ابتسامة عريضة، كأنه بطل رياضي يقف قاب قوسين أو أدنى من تحقيق البطولة، وزاد من سرعة السيارة، راودتني كثير من الهواجس، ورحت أستعد لكل مفاجأة، تشبثت بجانبي الكرسي، وأنا أحدق في السيارة أمامنا وقد كدنا نرتطم بها، دق قلبي بعنف وكدت أصرخ في جنونه، استل من باب السيارة مسدسا وضعه أمامه، فهمت الرسالة فسكت، وقد ازدادت دقات قلبي، دفع السيارة أمامه بقوة فاختل توازنها، وراحت تتمايل أمامنا، ثم انحرفت إلى منخفض بين الأشجار الكثيفة وانقلبت، كالجني ركن سيارته وأسرع خلفها، ولم أجد بدا من أن ألحق به، لا بد أن أنقذها، لن أسكت عن الجريمة، لا بد أن أتصدى للمجرم، حين لحقت به كان كل شيء قد انتهى، كانت الفتاة جثة هامدة أمامي، وكان رأسها شبه مفصول عن جسدها، وفي عينيها المشرعتين لوم وعتاب، وفي فمها المزموم صرخة لم تدو، وقد شدت أصابعها على الطين من حولها، مازال الدم يتدفق ساخنا يعانق سيول الأمطار، هزتني الدهشة، لزمت مكاني كتمثال صخري بارد، أي وحش قذر يفعل هذا؟ رددتها أعماقي لكنها لم تخرج.

صرخ فيّ غاضبا يأمرني أن أحمل حقيبة النقود من الكرسي الخلفي،

ارتعدت في مكاني، لا أعرف كيف أتصرف، مددت يدي بتثاقل، هيأ الرصاصة في مسدسه، أسرعت أمشي أمامه منتظرا في أية لحظة جنونا آخر يرديني قتيلا، دون أن يبرح مشهد القتيلة خيالي، كم هو سهل أن تقتل، أن تذبح! يكفي أن تمتلك جرعة أكبر من الوحشية.

حين وصلنا استلم مني الحقيبة، وهو يصوب مسدسه باتجاه صدري، كان قلبي يدق بشدة، رفعت يدي مذعنا، ما الذي أفعله الآن غير الاستسلام؟ أية حركة مني ستنهي حياتي، سحب بطاقة هويتي من جيب قميصي، تراجع خطوة، ارتعش كل بدني، ابتلعت ريقي بصعوبة، زاغ بصري، وفجأة دفع حذاءه الملطخ طينا في صدري مقهقها، دفعني لأهوي إلى عمق الوادي، وانطلق مبتعدا.

حين لملمت شتاتي لم يكن قد لحق بي ليجهز علي، كانت الأمطار قد ازدادت ضراوة كأنما تصب لعناتها عليّ، تغسلني من جريمتي، من جبني، وكان زحف العشية قد اشتد، فأطلقت ساقي للريح أخوض في لجة الطين والأوحال، متجنبا ما أمكن الطريق المعبد، لم أكن خائفا من رصاص القاتل الذي يمكن أن يعود أيضا لتصفيتي، رغم أني كنت متأكدا أنه مغتبط الآن بغنيمته، بقدر ما كان الرأس المنحور يطاردني، يلعنني، وظللت أمد أصابعي لأغمض عينيها الفزعتين، لأمحو عنهما آثار اللوم والعتاب، وأنَّى لي ذلك؟

حين دخلت بيتي كان الظلام الدامس قد لف الكون كله، وكانت الأمطار قد ازدادت هيجانا، كأنما ترقص على إيقاع صفير الريح الغربي البارد، لم أشعل النور إلا بقدر ما غيرت ثيابي المبللة، جلست تحت المرش الدافئ ساعة من زمن، أغتسل من الأوحال والبرد والجبن والجريمة التي

شاركت في صناعتها، ثم تسللت داخل الأغطية، لا لأنام، ولكن لأقطع مسالك وعرة من الرعب الشديد.

3

اشتد صراخي وأنا أغسل يديّ من الدم للمرة الألف دون جدوى، لم يكن أمامي هذه المرة إلا رأس السمراء، ملقى على الطاولة والدم يتفجر من أوردة الرقبة، وقد ارتسمت على ملامحها ابتسامة عريضة، لم تكن غير ابتسامة ساخرة مما أنا فيه، وأفقت من نومي مرعوبا، رحت أتأمل حواليّ، كل شيء كان عاديا، فوضى في غرفتي كالمعتاد، عشرات الصور التي رسمتها للسمراء في وضعيات مختلفة معلقة أو متناثرة على الطاولة والبلاط، سهرت إلى ساعة متأخرة، لم آخذ كفايتي من النوم، أغمضت عيني مرة أخرى ثم فتحتها وانتفضت واقفا، ما بقي من الوقت قد لا يكفيني للالتحاق بها قبل بدء المحاضرة الأولى، مازال قرص الكمان الذي أهدته لي صديقتي المراكشية يتراذذ على الغرفة موسيقى خافتة ناعمة مريحة، كما ضبطته البارحة قبل أن أخوض لجة الرسم، تمددت مرة ثانية في فراشي، أستعيد ذاكرتي بين مراكش والصويرة.

مساء وأنا أهم بالخروج من النادي لمحتها عند البوابة تنتظرني بابتسامتها الساحرة، كانت اليوم أكثر أناقة بقميصها الأبيض وسروالها الأسود، وبالضفيرة التي تفننت في إسدالها على جنبها الأيسر، وقبل أن أصل إليها لاحظتها تلف بشريط حريري أحمر ورقة بيضاء، قد تكون إحدى لوحاتها، صافحتها محييا، هربت مني الكلمات أمامها، لم يطل وقوفنا فانسحبنا إلى كرسي خشبي مطرز ثبت بين شجرتين كأنما يقوم جسرا للمحبة بينهما، غاصت في لجة الحديث عن المدرسة، وظللت أكتفي بالقليل من الكلام متطلعا إلى الورقة التي تحملها، ووجدت لنفسي مخرجا وأنا أعبر عن إعجابي

ببراعتها في لف الورقة، نظرت إلى الشريط الأحمر مبتسمة، وقد أدركت قصدي، وراحت تفك القيد بأنامل بضة لا تصلح إلا لعزف الألحان الخالدة، وهزتني الدهشة وأنا أرى لوحتي تعود إلي، وقد لحقها الكثير من التغيير، بسطتها جيدا كان حرف الميم قد دثرها من كل جهة كأنما هو منمنمات للوحة خالدة، وانفردت ميم واحدة تدلت من العقد الأحمر الذي رسمته أنا لسمرائي، كانت الدهشة تغمرني تفيض على كل ملامحي، لقد عرفت اسمي، يعني هذا أنها كانت مهتمة بي أيضا، وساورني الشك مرة ثانية، هل أنا فعلا من رسمت على جيدها هذا العقد الأحمر؟ ما كنت حريصا عليه هو التدقيق في يافطة قميصها التي فتحت منه زرين لم أهتم بما هو أسفل منهما، كنت حريصا في تلك اللحظات القليلة أن أنقل دفء الأحاسيس كما عبرت هي عنها وكما قرأتها أنا، التشكيل أحاسيس ومشاعر وروح ترفعك إلى أعلى، تغوص بك إلى الأعماق، تكشف لك كل مجاهيل الحياة.

وأعدت بسط اللوحة مرة ثانية، وقد خيل إلي أن الميم –التي اعتمدت خط الثلث– تبدو كمشنوق يتدلى مصفرا في حبل العِقد، وفي الحافتين تداخلت رؤوس الميمات وتزاحمت، فيما برزت أذنابها كألسنة أفاع سامة، ورغم كل شيء فقط كنت مبهورا بلمستها الإبداعية وبعبقريتها في تطويع الحرف العربي، لقد جعلت اللوحة لوحتين، بل لوحات.

وسرني كثيرا وهي تدعوني إلى سيارتها، كانت تبدو ثرية من مظهرها، وتأكد لي ذلك وأنا أجلس إلى جانبها، حين انسابت بنا السيارة تنحدر إلى قلب العاصمة، ظلت تحكي عن ميولها إلى الفن مذ كانت صغيرة، وإلى مداعبة الحرف العربي بالذات، الذي تهجت أبجدياته الأولى بأحد جوامع تلمسان، ثم طوعته أكثر بوهران، التي أشرقت فيها صبية ثم فتية ممتلئة بالحياة

والفن والجمال.

بقدر الحب والوفاء الذي كانت تحمله لوهران، كانت تُكبر تجربة تشكيل الحرف العربي، الذي يمكن في نظرها أن يغزو العالم ليشكل تيارا فنيا عبقريا.

حاولت أن أقلب في أرشيف ذاكرتي عن خطاطات فلم أعثر، هل سمرائي استثناء في الفن، كما هي استثناء في الجمال؟ هل يمكن أن تكون وهران خزان الماس الأوحد في تجربتي الفنية، على كثرة ما رسمت من ملامح، لم أشهد لها مثالا، وأنا أراها بروحي، بأعماقي، ما كانت السمراء مجرد تناغم حسي بارد قد تعثر عليه كثيرا بين بني البشر، ما يدهشك هو الروح الفوارة في الأعماق، ولا تشكيل دون هذه الروح.

أوقفت سيارتها حيث دللتها أول الأمر، صمتت لحظات ثم التفتت إلي مبتسمة فأحسستها تحتويني كلية، كانت نظرة دافئة، جعلتني أحس بقربي منها أكثر، هل هو شعور الحب الذي يربط العشاق عادة؟ أم هو شعور الإعجاب لا غير؟ أحسست بالراحة الكبرى معها، وقد كادت تزول كل اضطراباتي، حين ثبت بصري على جيدها، تبادرت إلى ذهني الرغبة الجامحة في الذبح، ورأيت أوداجها تمج دما فوارا قانيا، مدَّت يدها إلى قميصها ففكت زرا ثالثا، أحسست أنها تريد أن تنبهني أنها لا تلبس عقدا من أي نوع كان، ما الذي جعلني أرسم على لوحتها عقدا أحمر؟ هل أنا مطالب الآن أن أفعلها، فأنتقي لها عقدا كما تخيلته؟

4

قبل شروق الشمس ذاع خبر الجريمة في كل أرجاء المدينة، وتحولت الألسنة إلى معابر تصب في الآذان تفاصيل مختلفة، والتقى الناس في كل مكان ليلوكوا حكايات ينسجها خيالهم، يمططونها أنّى يحلو لهم، يرسمون لها مشاهد لا تنتهي.

قضيت يومي متنقلا في الشوارع، جالسا في المقاهي أسترق السمع وقد تملكني الخوف، أنتظر أن تباغتني الشرطة في أية لحظة، انتقل الخبر إلى وسائل الإعلام ليصير وطنيا ثم عالميا، علمت أن القتيلة ابنة أحد أكبر الأثرياء، والذي ظهر في إحدى القنوات مهددا متوعدا، فكرت أن أزور مكان الجريمة ذاك المساء، حتما هي فكرة مجنونة لأن الشرطة ستظل تراقب المكان على اعتبار أن المجرم من العادة أن يعود حيث ارتكب جريمته، حمدت الله أن سيارتي المعطوبة قد سحبها أحد أقاربي تلك الليلة بالذات إلى مستودع ميكانيكي قريب، ليس عسيرا أن تتعرف الشرطة علينا، يكفي أن تلاحظ آثارا لأقدام مختلفة، أملي الذي أتشبث به هو أن الأمطار قد محت كل ذلك، أعيد شريط الحادثة، ما الذي تركته خلفي دليلا قاطعا علي، لا شيء طبعا، لم ألمس سوى باب السيارة حين فتحته، أو مقبض الحقيبة، لا شك أن سياط الأمطار قد أزالت البصمات من على باب السيارة، ليبقى المقبض هاجسا يؤرقني، ولكنه حملها هو أيضا، خضضت رأسي يمينا وشمالا بقوة حتى أطرد تلك الهواجس اللعينة.

ارتطمت عند منعرج بدورية للشرطة، ارتج كل شيء داخلي، صرخت في

أعماقي، هممت أن أنطق مبرئا نفسي، راحت تبتعد عني، أسندت ظهري إلى الجدار، وأنا أبتلع ريقي بصعوبة، وقد زادت دقات قلبي، حتى خلته سيخرج من صدري، مررت يدي على وجهي، وضغطت على أنفي، كانت ركبتاي ترتجفان، لا معنى لكل هذا التسكع، يجب أن أعود إلى البيت، لست مجرما، أنا لم أفعل شيئا، كنت مجبرا فاقدا لحريتي، بل كنت مهددا بالموت في كل لحظة، لا معنى أن أخبر الشرطة، ليست ذي مهمتي، المهم أني بريء، حين يصلون إليّ سأقول هذا، وإن لم يصلوا فلست ساذجا حتى أذهب إلى عش الدبابير بنفسي .

أحكمت إغلاق الباب، أعددت قهوة، راكمت الجرائد حولي، وتمددت في سريري، كي لا ألفت الانتباه إليّ، يجب أن أكون هادئا، أن لا أغير طباعي في غدوي ورواحي، أن لا أهجر المدينة أيضا، وتساءلت إن كنت مجرما أصلا، أنا بريء، بل أنا ضحية، لست إلا ضحية، أنا مختطف، وعلى الشرطة أن تعرف هذا، أن تقتنع به، لست مجرما، لم ألمس الفتاة بأي شكل من الأشكال، هو من طاردها، هو من دفع بسيارتها إلى الهاوية، هو من تبعها، وقتلها، ثم فصل رأسها عن جسدها أو كاد.

عجيب أمره، قام بكل شيء في لمح البصر، قبل أن ألحق به كانت الفتاة جثة هامدة، كأنما قضت قبل أن يصل إليها، لاشك أنه مجرم محترف، هل هو خائف الآن مثلي؟ لا أظن، كان وهو ينفذ جريمته هادئا رابط الجأش، كأنه مدعو لوليمة، ولماذا قتلها؟ أمن أجل المال؟ أم وراء الحادثة ما وراءها؟ سمعت من كثير من الألسنة أنه انتقام للشرف، وأن الشكوك تحوم حول عشاق الفتاة، ورأى النادل سببا آخر للقتل، حين وجه التهمة للورثة، فلا دافع يقتل الناس من أجله إلا المال، المال هو جسر الشيطان إلى الجريمة، كل شيء ممكن، حق لهم المال والجنس معبران أساسيان للجريمة، لو تخلصنا

منهما سيصير الإنسان حتما مخلوقا وديعا مسالما إلى أبعد الحدود.

لم أتذكر جيدا ملامح القاتل، محت الدهشة كل التفاصيل في ذاكرتي، كان طويلا مفتول العضلات، متناسق الملامح، أميل إلى البياض، كل ملابسه سوداء، قميصه، سرواله، جاكتته، ضيعت عينيه خلف النظارة السوداء الكبيرة، عجبا حتى سيارته كانت سوداء، هل يمكن أن يسمى السفاح الأسود؟ ليس الأمر صعبا علي، سأقوم اللحظة برسمه كما شاهدته بالضبط، واختلط الأمر علي، هل كان له شارب أسود أيضا أم كان دون ذلك؟ عجيب ما الذي جعلني أفقد تذكر هذه الجزئية؟

تناهى إليّ فجأة دق عنيف، أسرعت واقفا وقد أرقت دم الفنجان أمامي، ازدادت دقات قلبي، وتملك ساقي خور شديد، فلم تحملاني حتى الباب، لقد وصلوا سريعا إليّ، لا شك أنهم ألقوا القبض عليه فاعترف بكل التفاصيل، أنا لم أفعل شيئا، اخرس أنت شريك في الجريمة ومتستر عليها، تلفت لأعرف مصدر الصوت، لا أحد معي، شددت ركبتي بأصابعي وخطوت إلى الأمام، تواصل الدق من جديد، وفتح الباب ثم أغلق ثانية، وقد تناهى إلى سمعي صوت جاري يرحب بأحد ضيوفه، كأن جملة قفزت إلى أذني من بعيد تؤكد أنهم قبضوا عليه.

تكورت على نفسي، وأنا أحلم اللحظة بسيجارة أمصها بنهم شديد، بل بمخدر يرحل بي بعيدا، فعلت ذلك في مراهقتي لكن لم أعد ثانية للتجربة، مع أنني من المؤمنين بوجوب خوض كل التجارب، واقتحام كل الممنوعات، سأنام، أحيانا يكون النوم مهربا رائعا أيضا، انكمشت ثانية أطوي ركبتي وذراعي، أغمض عيني، أستجدي النوم.

5

كانت لي رغبة جامحة في أن نزور البحر هذا الصباح، يتملكني حد النخاع وأنا أقف أمامه هائجا، مستعرضا لقوته ومهارته القتالية، أمقته حين يستسلم رخوا صيفا، حلمت أن نجلس معا جنبا إلى جنب على الصخور العملاقة، سأجد لنفسي فرصة تأمل ملامحها، سأعدو خلفها على رمل الشاطئ، سألتقط لها مئات الصور وقد رفرف شعرها راقصا على إيقاع الموج، سأصرخ فيها أن تعود لئلا تبتلعها الموجة، وانبسطت أساريري وأنا أراها ممددة على الرمل البارد، يتسلل الماء إلى كل ثيابها، أمسك بيدها بقوة لأسحبها بعيدا، يتلون الماء حمرة، خيط خيطان، ثم تهدر أمواج الدم، أراها مفصولة الرأس، أحدق في سمرائي جيدا، إنها الفتاة المقتولة، يداهمنا قرش شرس يأخذ معه جزء منها، أسحب من بين فكيه ما تبقى، أبتعد صارخا... اللعنة ما هذه الخيالات المجنونة، إلى متى تطاردني هذه الحماقات؟ سمرائي -أيتها الوساوس الحمقاء- للحياة وليس للموت.

التقينا، فذهبت كل خيالاتي أدراج الرياح، وهي تلزمني بمرافقتها إلى المتحف الوطني للخط والمنمنمات، ورغم ولوعي الشديد برسم الملامح إلا أنني بدأت أحس ميلا إلى فن الخط، ليس بشكله القديم المتوارث عن الأسلاف، ولكن بالعبقرية التي منحها له الأبناء، لقد ظلت طوال الأيام التي التقينا فيها تحدثني عن هذا العالم العجيب، وعن فن الحروفية بالذات، كانت لوحات رشيد قريشي أكثر جذبا لها، تقف أمام كل لوحة لتقدم فيها قراءتها، عالم مدهش من الإشارات المشحونة بروحانية الشرق، والدلالات المكتنزة

بالعالم الصوفي، وحين كانت تشير بأناملها لحركة الصوفية في حلقات الذكر، وبحالة الوجد التي كان يعيشها الحلاج أثناء صلبه، كنت أرى الحلقات منشارا الكترونيا للذبح، وليس الصليب الأحمر إلا نهرا من الدماء، واختلفنا في قراءة اللوحة، أخذنا عندها صورة، سمحت لي فيها أن أطوق كتفها بذراعي اليمنى، أحسستها حلما جميلا يقف حيث فيض القلب، أحسست بعدها بالسكينة وأنا أشد يسراها لنخرج معا.

ضمتنا كافيتريا الأحلام، مباشرة على شاطئ البحر، تقابلنا وجها لوجه، سرحت عبر الزجاج أتأمل الأمواج العاتية، حين عدت ببصري إليها، انسحبتْ من دهشتها وقد كانت تتأملني، دفعت برأسي أقترب منها، وكذلك فعلت وقد امتلأ وجهها فرحا، غمرني عطر جسدها.. روحها، رقصت نفسي على إيقاع قلبها الجميل، اكتشفت لأول مرة روعة أسنانها، بهاء ابتسامتها، يكفي ذلك وحده ليلهمني ما لا نهاية من الأعمال الخالدة، آه يا سمرائي أنت دهشتي التي لا تنتهي، أنت حلمي الأبدي، أنت وحدك من يقهر الشيطان داخلي، كل الأميرات إماء لسمرائي، مثلما كل أميرات المدائن إماء لوهران. كما ترددين دوما.

راحت تحدثني عن حلمها الكبير في دمج عالمي الحرف والمنمنمات داخل اللوحة الواحدة، لخلق تيار جديد، ستطلق عليه اسما جديدا، ماهو؟ ليستْ تدري الآن، كانت أحلامها متوثبة، كفراش الحقول، كغزلان البراري، كطيور المرتفعات، كالأمواج الشتوية الصاخبة، وفاجأتني وهي تخرج لي من كيس جاءت به من صندوق سيارتها لوحة يتعانق فيها السواد اللامع باللون الذهبي المشرق، لا ترى في الوهلة الأولى إلا صورة قوزح صنعته الطبيعة بعبقريتها بعد رذاذ حالم تنزَّل دمعا من عيون سحابات دغدغتها أشعة الشمس فانخرطت في

حفل للقهقهات الباكية، ثم تتأمل اللوحة فإذا حرفان قد تعانقا عشقا وهياما ميم سين، مطرزين بمنمنمات غاية في الدقة، يحلقان إلى أعلى العليين، مرفرفين بأجنحة لا عد لها، على درب النور الذي ينتهي عند اللامنتهى.

بقدر ما أحسست بالدهشة وأنا أتأمل تفاصيل اللوحة التي تحتاج إلى قراءات كثيرة، أكبرت هذه الروح الراقية الجالسة أمامي ملاكا من نور.

أسرعت تقلب لوحتها وقد شجعتها إشراقة الدهشة على ملامحي، فكانت لوحة أخرى، غرقت في تأملها وأنا أتلمس تفاصيلها بأناملي، ضربات حمقاء من فرشاة بلون الرمل، يتكاثف عند الوسط ثم يشتد أكثر فيحيل اللوحة ليلا يكاد يكون قاتما، لولا نجوم لمعت كأنها رؤوس أسياف حادة، تنزلق عليه أحرف كأنما هي مفاتيح كلمات لبيت صوفي.

رحت أسترجع ما أحفظ من شعر الصوفيين وأنا المتيم غير أني عجزت، في الأسفل طرز البيت الموحي، غير أن كثافة المنمنمات لم يحلني إلا على لفظتي، النقع وكواكبه، رفعت فيها عيني مستجديا، اعتدلتْ بكبرياء وتحد، مدت أناملها ليديّ، ضغطت أصابعها، سمرائي تصنع الدهشة في كل شيء.

6

لم تمض إلا أيام قليلة حتى توصلت الشرطة إلى قاتل الفتاة، كيف حصل ذلك لا أدري بالضبط، كل ما علمته أن فرقة هاجمت سيارة كانت متوقفة قرب ملهى ليلي واقتادوا صاحبها لتوجه إليه في الحين تهمة القتل، تهاوى كل شيء فيّ، حاصرتني آلاف الهواجس الملعونة، أيّ قدر ساقني إليه أو ساقه إليّ، هل كان لقاؤنا في تلك الليلة الماطرة مجرد صدفة؟ وهل كان عبور الفتاة أيضا مجرد صدفة؟ حتما لن يطول الأمر، سيشي بي في أول لقاء للتحقيق، وهو في قمة الانتشاء، ويثبت لهم بما لا يدع مجالا للشك أني القاتل الفعلي والحقيقي، أدرك أنني ضعيف ولن أقوى على مواجهته وهو المجرم المحترف، ولا مواجهة رجال الشرطة، الذين يملكون وسائل جهنمية لانتزاع الحقيقة، دق قلبي دقات غير منتظمة، وانغرزت فجأة نصلات حادة في بطني، وقرقرت أمعائي، انحنيت وأنا أضغط عليها بذراعي معا، وتمددت على الأريكة، سأضطر أن أدخل المرحاض كثيرا اليوم.

قضيت أياما لا أخرج من البيت، حتى أهلي لم يسألوا عني، هاتف واحد وصلني من والدتي، أقنعتها أني مشغول بإنجاز لوحات جديدة طلبها بعض زبائني، لم تكتف بهذا أو تدعو لي بالتوفيق كعادتها، بل انهمرت علي ثرثرة، وهي تعيد علي حكاية القاتل الشرس، مركزة على عشرات الصور البشعة التي وجدت عليها الفتاة، أصابعها المبتورة، نهداها المقطوعان، شعرها المحترق، دون أن تتردد في الدعاء على السفاح بالويل والثبور، لكن من أين لها بكل هذه الصور البشعة؟ هل عاد المجرم للمكان أيضا ليمارس ساديته

هناك؟ أم أن الأمر لا يعدو أن يكون عبث صبيان على الفوتوشوب تناقلته الصحف والقنوات أيضا؟

تذكرت والدي العسكري في هذه اللحظة، برز أمامي بعنجهيته وغطرسته، رغم احتقاري له دوما، غير أني تمنيت عودته اللحظة إلى الحياة ليسد فمها ويقطع لسانها، في حياته ما كانت حتى تحسن استعمال الهاتف، واليوم صارت لا تكف عن استعماله، تبا لها لقد ضاعفت آلامي، كدت أصرخ فيها أن تسكت، هممت أن أغلق الهاتف، أنقذتني وهي تنهي مكالمتها.

دوما كنت أتغلب على صعاب الحياة وخيباتها بالرسم، ألج محرابه لأتطهر من أدران الحياة ومآسيها، أصب في اللوحة كل آلامي وآمالي، كل أحلامي وانكساراتي، أقضي الأيام بلياليها في صومعتي هذه، بيتِنا القديم الواقع في أحد أطراف المدينة، تعانقه حديقة على صغرها رتبت بعناية فائقة، وطرزت بأنواع من الورود والأشجار، وكان أبي قد اتخذه من سنوات مستراحا له، يقصده في عطله خاصة، يشرب فيه خمره، ويستقبل فيه عشيقاته، بعيدا عن عيني أمي، التي ربما تناهى إليها بعض من ذلك، لكنها كالنعامة كانت تضع رأسها في الرمل وتسكت.

أحسست بظمإ يداهمني فجأة، لعقت شفتي، وجرعت من قارورة كانت أمامي، اقتربت من النافذة، ارتفع فجأة صوت سيارة الشرطة، تراجعت إلى الخلف وقد اصطكت ركبتاي وأسناني، وأحسست بالرجفة في يدي، تهاويت إلى الأرض، مددت بصري إلى الباب، أنتظر الدق العنيف، ثم تحطيم الباب، ثم ماسورات الرشاشات تحاصرني من كل جانب، تعرق جبيني، أحسست بللا بين فخذي، لكن لا شيء وقع مما تخيلت.

سحبت جسدي إلى النافذة استطلع الأمر وضوضاء مازالت تصل

سمعي، حين نظرت عبر الزجاج كانت سيارة الإسعاف تهم أن تغادر بيت جاري، وما كادت تطلق صفارتها ثانية حتى انهرت على الأرض، استلقيت تماما على البلاط وأنا أفتح يدي إلى آخرهما، أتلذذ بالبرد الشديد الذي تسرب من البلاط إلى كل عظامي.

رغم الرغبة الشديدة التي تملكتني في التبول إلا أنني لم أتحرك، كانت لي رغبة أشد في النوم، ملت برأسي باتجاه اللوحة، قرأتها من الأسفل، كانت هناك صورة أخرى لم أقصدها، صورة امرأة عارية، باهرة الجمال، لكنها مفصولة الرأس، ضغطت عيني بقوة وأعدت فتحهما بسرعة، مجرد أوهام ما رأيت، إنها صورة للسفاح، تشبه إلى حد كبير قناع تريستان تزارا للرسام العالمي مارسيل جانكو، وهي تضرب عرض الحائط بكل القيم، لتستدعي الفوضى والعبث، لكن فمه المائل كأنه فم مشلول كان أقرب إلى الابتسامة الزائفة، وكان يرتدي نظارته السوداء كاملة، دون أن تفلح في ستر تعطشه للدماء.

من يقف داخل القناع؟

لا أحد سواي، أنا من كنت هناك، أنا ما زلت هناك.

وارتخيت فجأة كأني في حمام معدني يفيض علي من كل مكان، ربما لا تعدو أن تكون حكاية السفاح إلا هلوسات لا معنى لها، من يقدر على فعل كل ذلك؟ وما الدوافع؟ وكيف تسكت الشرطة عني إلى هذه اللحظة؟ اللعنة، لكن شريط الأحداث يمر أمامي الآن بكل تفاصيله، وأدقها أيضا، انكمشت ثانية وصيحات الفتاة القتيلة تزلزل علي أركان البيت كله.

7

وأخيرا أقنعتها بزيارتي في بيتي المتواضع، برغم ما نشأ بيننا من إعجاب متبادل، تطور سريعا ليصير حبا وتعلقا، ظلت مسحة من الحياء تجللها دوما، وظلت تتحفظ في كثير من تصرفاتها معي، قضيت مساء يومي في تنظيف البيت وإعداده، أتأمل كل زاوية فيه، أحاول أن أزرع فيه فرحا يبهجها، ثم قضيت ليلي في إقامة معرض للوحاتي التي أنجزتها في الأشهر الماضية، لففتها جميعا بخرق بيضاء، وفي كل الزوايا أشرقت باقات من الورود التي تحبها، لم يكن بيتي سوى غرفتين إحداهما للنوم والأخرى لممارسة جنوني الإبداعي، مع مطبخ وحمام واسع، وحديقة تحيط بالبيت من جهتيه، اتخذت جزء منها مرسما ومستقبلا لضيوفي الذين قلما يقتحمون علي خلوتي، فأنا بطبيعتي منكفئ على نفسي، أعيش عالمي الخاص كما أريده.

ورثت البيت عن والدي الضابط المتغطرس، والذي ظل لسنوات طوال يحاصر بهذه الجدران أسراره، وجنونه، وحماقاته، هل كان أيضا يمارس إبداعه بطريقته الخاصة؟ ربما فالإبداع ضرب من الجنون أيضا، بمجرد أن تسلمت البيت اندفعت افجر طاقتي الإبداعية، بعد أن تهت في الأرض كثيرا.

تناهى إلى سمعي صوت محرك سيارتها، ثم لفظ أنفاسه واستكان للصمت، أسرعت أرتب هندامي، وألقي نظرة أخيرة على المكان، كل شيء كان مرتبا موحيا، نزلت أربع درجات لأفاجأ بها تصعد السلم ذا الدرجات السبع، وقد احتضنت هديتها إلي، أمسكت بيدها ودلفنا البيت وقد تراذذت عليها ترحيبا.

عند باب غرفة الاستقبال كان يقوم حاجز من الأشرطة الملونة، وأمامه وضعت طاولة صغيرة عالية عليها مقص صغير، سريعا فهمت سمرائي الرسالة وهي تبتسم، وضعت هديتها على الطاولة في الوقت الذي حملت المقص، وسريعا كانت القطعة الموردة منه في يدها، دوت يداي تصفيقا، ودخلنا معا دون أن أكف عن الترحيب، توقفتْ تجيل الطرف مندهشة، وهي تشهد معرضا كاملا في مساحة صغيرة، تقدمنا من أول لوحة عن اليمين، رفعت عنها الغطاء، فارتسمت دهشةٌ عريضة على عينيها بالخصوص، كانت الصورة لها تظهر جانب الوجه الأيمن، وقد انحسر الشعر عن رقبتها فبدت ممتدة كمئذنة، كان الرأس مرتفعا في شموخ تسنده يمناها، تضع سبابتها تحت ذقنها وتكاد الوسطى تغطي شفتها السفلى، تمتد فتحة عينها اليمنى إلى أبعد حدود الصدغ، وقد ظللتها الأهداب السوداء، حين مدت يدها تلمس صورتها أخذتُ بيدها إلى اللوحة الثانية، أسرعت هي إليها تكشف سرها، كانت فيها كئيبة، تطأطئ رأسها وقد ضمت جبينها بأصابع يديها، فتهدل شعرها الأسود شلالا من الأحزان، لم يكن يظهر من ملامح وجهها إلا أرنبة أنفها.

ورحنا نتنقل بين اللوحات، لم تكن إلا لسمرائي في وضعيات مختلفة، خزنتها ذاكرتي وقد رأيتها عليها عبر الأيام التي تعارفنا فيها، وتسلل الخيال في تفاصيلها، مستعينا بآليات المدارس المختلفة حينا، متمردا عليها كلها، أو مازجا بينها آحايين كثيرة.

جلسنا وسط حديقة الصُّور، وقد جللتها الدهشة، ولم تكبت مشاعرها، فمدت أصابعها إلي، شدت أصابعي بحرارة، وقد رسمت على وجهها ابتسامة الرضا، وصمتنا، تتعانق نظراتنا وأنفاسنا ودقات قلبينا، ما أروعني معها، وما أروعها معي، لم تسعني الدنيا في تلك اللحظات، وماذا أريد أكثر

من هذا؟ يكفي ما عانيت من تيه وتشرد وضياع، يكفي ما مارست من هروب إلى الأراضي البور من حياتي، آمنت أن الفن هو خلاصي، الآن صرت أكثر يقينا من أن لا فن دون امرأة، بل ولا حياة دون امرأة أيضا.

خرجنا بعدها إلى الحديقة التي كنت أعتقد أن لمساتي الفنية قد جعلتها ساحرة، وزعت نظراتها في كل الأنحاء، أبدت إعجابها دون أن تتخلى عن ولكن...، كانت ملاحظاتها دقيقة، أبدت عن معرفة عميقة بعالم الزهور، ونباتات الزينة، وبالزخرفة الإسلامية التي كانت تريدها أن تكون في كل ملامح المكان، لا معنى لمكان لا يقول هويته في رأيها.

حين كانت ترشف من عصيرها كنت -ونحن جلوس نتفيأ شجرة الليمون- أعزف على العود بمهارة لم أحققها من قبل، وتقضي لحظات للتيهان والحلول تغمض عينيها، تسند رأسها إلى الخلف، كأنما تحلق تطارد الألحان.

8

كان ذلك اليوم عصيبا علي، ولم أك قد بلغت العشرين بعد، لم يكن والدي يقضي وقتا طويلا معنا حين يعود إلى البيت في العطلة الأسبوعية، ولم تكن أمي تلح عليه في ذلك، كان عنيدا وقاسيا معها، تجهز له ما تعود أن يأخذه معه ثم ينتقل إلى عزلته في البيت الصغير، حيث يوفر لنفسه خمره وعشيقاته، وكان في كثير من الأحيان يعود إلى العمل دون أن نراه، حتى يحين الأسبوع الآخر، أو ربما الأسابيع والأشهر، حين يفرض عليه عمله التنقل إلى مدن أخرى.

كان والدي صارم الملامح، لا يكاد يحدث أحدا، ولا يكاد أحد يحدثه، حتى والدتي كان يكلمها برسمية قاسية أحيانا، وكثيرا ما كنت أثور عليه في غيابه، فلا تزيد والدتي عن إلصاق التهمة بالوظيفة العسكرية التي جعلت منه هكذا، صلبا صارما، وقاسيا أحيانا أيضا، يحسن توجيه الأوامر، وينتظر تطبيقها بدقة، يقف مقطب الجبين، مرفوع الرأس، مستقيما في وقفته كأنه في ميدان الاستعراض، ويكفي أن لا يعجل المأمور إلى التنفيذ فينزل عليه رعدا وبرقا.

عاد أبي هذه المرة في عطلة تمتد أسبوعين، وكالعادة اعتكف في معزله، يعود إلى البيت كل يومين أو ثلاثة ليأخذ بعض ما يحتاج إليه خاصة ملابسه، وكانت والدتي تهيئ له كل شيء حتى قبل أن يطلبه، تجهد نفسها في إعداد ما يشتهيه من أطعمة تقليدية، تتفنن في تحضيرها، تلفها جيدا كي لا تفقد أريجها وطعمها، وتدسها له بين ملابسه دون أن يدري، يمكث أحيانا وقتا أطول، يتناول معنا قهوة المساء، وربما يتعشى أيضا، أراه يجهد نفسه ليكون منبسطا بيننا، يسأل، يضحك، يمازح، أحيانا يسأل ويجيب، ما كنت أبادله ذلك، قد

أتركه وأنصرف إلى غرفتي.

لكن والدي لم يأت إلى البيت نهاية الأسبوع كما تعود، حين مر اليوم الرابع تملك والدتي هاجس الخوف الشديد، كانت كئيبة قلقة لا تكاد تستقر في مكان واحد، تتطلع إلى الباب والنوافذ، وتسرع لتمد رأسها إلى الشارع كلما تناهى إلى سمعها صوت أقدام أو صوت سيارة، ولن يسبقها أحد إلى الباب حين تسمع طرقه، ولكنها ظلت تعود كل مرة خائبة منكسرة، في عينيها عواصف من الحزن والكآبة، أراها تعيد ترتيب حاجياته كأنما تتفقد رضيعا، تجسها، تتشممها، أرى في ملامحها شوقا حائرا، وفي عينيها دموع تهم أن تهمي، فتقمعها بشدة.

وكلمتني بما ينتابها من هواجس مساء اليوم الرابع، ملحة علي أن أستطلع البيت ولو من بعيد، ورغم أني كنت رابط الجأش، ولي ثقة زائدة في جنون والدي، الذي قد يفعل ما لا نفكر فيه حتى، غير أن دبيب الخوف بدأ أيضا يتسلل إلى نفسي، ربما هو عدوى من والدتي، ولكني بدأت أتوجس خيفة فعلا.

وأسرعت حيث أمرت الوالدة.

كان المساء قد بدأ يلفظ أنفاسه أمام زحف الليل، ورغم أن الإنارة قد أشعلت للتوّ إلا أنها لم تبدد كثيرا من ظلام زوايا الشوارع، عشرات من الخفافيش راحت تستعرض عبقريتها في الطيران والمناورة، وقطط تجمعت أمام حاويات الفضلات بحثا عما يشبع جوعها، وعابرون إلى كل الاتجاهات والمقاصد، مسجديون ومخمريون، وعابثون لا هدف لهم.

كان السكون يطوق بيتنا من كل جانب، حركة طيور في شجرتي السرو تتناهى إلى الأسماع بين حين وآخر، حين يهم قط أحمق بتسلق الجذع، ليعود من حيث بدأ، لفت انتباهي ضوء الحمام، في الوقت الذي ساد الظلام كل ما

تبقى من البيت، وقفت طويلا عند باب الحديقة الحديدي مترددا في الدخول، أمد يدي أدفعه قليلا حتى لا ألفت الانتباه، لكنه كان محكم الغلق.

وامتدت إلي من الخلف يد اهتز لها كل بدني قشعريرة، وخفق قلبي بشدة، وذهب النور للحظات من بصري، حين التفت عجزت حتى أن أصرخ، وأنا أفاجأ بشبح بلباس أسود يقف خلفي، تقهقرت مرتطما بالباب الحديدي، لم يكن الخوف الذي تملكني إلا هواجس للرعب بنيت لها في قرارتي حصونا، إذ لم يكن الشبح إلا أمي، التي نطقت بصوت خافت، تسأل عما توصلت إليه.

لم تستطع والدتي البقاء في البيت وانتظار ما أحمله إليها من أخبار، زادها صمتي حيرة، وأنا أتلفت إلى كل الاتجاهات، دفعتِ الباب الحديدي مرارا دون جدوى، تطلعت إلى كل مكان، ثم راحت تسعى بخطوات قلقة ذهابا وإيابا، تبحث عن مكان مناسب للدخول.

ما الذي أعاد إلي هذه الذكريات المؤلمة، التي كلما حاولت ردمها في أعماق أعماقي إلا وأصرّت على الظهور من جديد، كأنما تقع الآن أمامي طازجة؟، ما أتعسنا حين نجر خلفنا ذكريات بئيسة حزينة!

9

كانت الرسالة التي وصلتني اليوم مريبة، ظللت أقلبها بين يدي دون أن أفتحها، ليس من العادة أن تصلني رسائل، رحت أتلمسها جيدا ثم أقوم برميها على المكتب، يظهر أن بها صورة أو بطاقة، كانت صغيرة الحجم، بيضاء اللون، خالية من عنوان المرسل، وكان عنواني مكتوبا بخط لا يكاد يفهم، يظهر أن صاحبه قد كتبه على عجل، إما لأن وقته كان ضيقا، وإما أنه كان يسعى لإخفاء خطه، لا أظن أن هناك دافعا ثالثا لذلك.

لم أتحمس لفتحها، رميتها جانبا، أحسستها تمور غيضا، وقد تحديت إغراءها، وهممت أن أعود لإتمام لوحتي، استوت الفرشاة في يدي، وعانقت عيناي تفاصيل اللون الأخضر العميق الذي عانق في بعض أجزائه سوادا داكنا وحمرة قانية، لم تغادر الرسالة خيالي، ظلت تسد علي الطريق إلى ملامح الصورة التي استعملت فيها هذه المرة تقنية اللصق، جريدة، وأعواد كبريت، وسلك نحاسي، وقطعة غيار سيارة علاها الصدأ، كانت رغبة الاكتشاف أكبر مني، أعدت الفرشاة حيث هي، وجلست إلى مكتبي ثانية، جرعت من قهوتي الباردة، وحملت الرسالة بيسراي، أهم أن أعمل فيها المشرط لأفض أسرارها.

دار في خلدي أنها رسالة مفخخة، وأنها ستنفجر في بمجرد أن أفتحها، وضحكت من نفسي، وهل أنا ذو أهمية لهذه الدرجة حتى استهدف برسالة مفخخة؟ أنا مجرد رسام بائس، لا مصلحة لأحد في قتلي البتة، لا أشكل خطرا حتى على ذبابة، وأعدت إلى ذاكرتي جريمة القتل التي ورطت فيها، وحدها ستظل تمثل لي كابوسا خطيرا، يمكن للقاتل في أية لحظة أن يذكرني

للأمن وأجر إلى غياهب السجن ذليلا حسيرا.

وكم كانت دهشتي كبيرة حين فظظتها ليطل علي من خلفها الكابوس الذي طالما أرقني، "تلميذي العزيز، لا تخش شيئا، لن أشي بك لأحد، لقد أعطيتك درس البطولة الأول، وأنا على يقين أنك ستكون قاتلا محترفا، لقد مر على ذات الدرس العشرات، فرادى وجماعات، وسواء نجوت من السجن أم دخلته، ما وشيت بأحد قط، سعادتي في أن تبقوا طلقاء، شريطة أن تعوا الدرس جيدا، البشر ليسوا أهلا للحياة، وقتلهم هو أعظم هدية نقدمها إليهم، أريدك دوما أن تتذكر رقبتها المنحورة، ورأسها المفصول، والابتسامة العريضة التي كانت ترسمها على شفتيها فرحا بخلاصها الأبدي".

ضغطت الرسالة بين أصابعي، حملقت بعيني في كل اتجاه، دق قلبي بشدة، تصبب جبيني عرقا، قمت، ثم قعدت، كل جزء فيّ كان يرتجف، تلصصت على الرسالة بين أصابعي، ثم خبأتها ثانية، من هذا المجنون؟ وما يريد؟ وأيّهم من أتباعه في هذا البلد؟ إذن هو ليس مجرد مجرم قاتل، إنه صاحب...

وكدت أقول إنه صاحب فلسفة في القتل، بل فلسفة في الحياة، بل له سحر لا يدانيه سحر، لقد صرت أعشق الرقاب المنحورة، رقاب النساء خاصة، أتخيل تلك الدماء تطوقها عقدا من الماس الأحمر، وسريعا قذفت بالرسالة بعيدا، أخِ اللعنة عليه وعليّ أيضا، عن أي خلاص يتكلم؟ وعن أي ابتسامة؟ قد قدم المسكينة قربانا على مذبح جنونه، على مذبح حماقاته، ما أتعس ملامحها والدم يتفجر منها! كم كانت نضراتها ذابحة لا يمكن نسيانها! عزائي أني لم أكن أستطيع فعل شيء، لست المذنب، كنت ضحية أيضا، وما كنت أقدر حتى على تبليغ الشرطة.

حلمت ليلا أني عثرت على لوحة سريالية بديعة، بها صورة والدي،

مدججا بالنياشين، يزين رقبته عقد يقطر دما، وكانت رجله ملتصقة بأعلى كتفه، يرتفع فخذه إلى الأعلى، وتنثني ساقه فوق رأسه، لتتدلى قدمه على كتفه الأخرى، تبدي ملامحه تقززا شديدا، لعلها من رائحة حذائه العسكري، وكانت اللوحة غاية في الدقة كأنما رسمها سلفادور دالي Salvador Dalí أو أوندريه ماسون André Masson .

تلاشت اللوحة فجأة، كأنما كانت تظهر على شاشة قطعت عنها الكهرباء، استيقظت كأن لم أنم، لم أكن مرعوبا، ولا متعبا، بل كنت بالغ السعادة بهذا الوحي الجميل، سريعا عمدت إلى عدتي أنقل اللوحة بكل تفاصيلها كما شاهدتها، وأنا أردد في قرارة نفسي، هل سأكون نبيا للفن؟

تمردت على الوحي بوحي آخر من تريستان تزارا Tristan Tzara، فربطت أنف والدي بقدمه بواسطة سلك مفتول شائك، التقطته من الحديقة، ثم لففته حول أعلى رأسه كخوذة بائسة، فكانت اللوحة سريالية دادية بامتياز.

10

في الوقت الذي راحت أمي تولول، كأنما ترغب في تجميع الناس حولها، والاستنجاد بهم، تجاوزت باب الحديقة وهو يتهاوى بضربة قدم واحدة، ورحت أدفع الباب الخشبي بقوة، مستعملا قدمي أحيانا، وكتفي أحيانا أخرى، غير أن الباب ظل عنيدا يأبى أن يتزحزح قيد أنملة، كأنما تعلم من والدي عناده وصلابته، وتضاعفت هواجسي حين لم نتلق أي رد من الداخل، مادام الضوء مشتعلا فإن والدي بالداخل حتما، وما دام لا يرد فإن مكروها قد لحق به، وتجمع حولنا خلق كثير، ارتفعت جلبتهم تخدش حياء الليل، وقد اختلفوا في التصرف إزاء هذه المعضلة.

في الوقت الذي تهاوى الباب وقد تضافر الجميع على هده، تعالت صفارات الإنذار، وصلت على التو سيارة للشرطة وأخرى للإسعاف، كنت قد دخلت وتفرق الجمع في الغرف، فجأة ندّت من أحدهم -وكان فتى- صيحة سحبتني للتو إليه أدفع كل من يقف أمامي، وشقت صرخة أمي الفضاء الساكن، وهي تمد صوتها باسمه: كمال، ثم هوت على الأرض هامدة، كان والدي مسجى على بلاط الشرفة، رجلاه الحافيتان داخل قاعة الاستقبال، يتجه برأسه إلى السماء كأنما يناجي خالقه، وقد امتزجت صفرة وزرقة على ملامحه، وانتفش شاربه الكث الطويل كنبتة صحراوية امتص الهجير دمها.

كان يمسك حزامه بأصابع يمناه، في حين استقرت يسراه تحت خصره، ورغم كل ذلك كان أنيقا في ملبسه، قميصه الأبيض، ربطة العنق الحمراء،

بذلته الزرقاء، كأنما عاد لتوه من حفلة ساهرة، أو كان ذاهبا إليها، ليس حوله ما يثير الشبهة، غير كرسي بارد في الشرفة تدلت منشفةٌ بيضاء على متكئه، وغير زجاجة خمر توسطت طاولة الطعام الكبيرة في حزن شديد، وغير سيجارة لفظت أنفاسها بالقرب منه في ريعان شبابها، ورغم إصراري على لمس والدي، فقد تصدى لي الحضور، كما تصدوا لوالدتي، وفي لحظات أصدر ضابط الشرطة أوامره بإخراج الجميع.

من فعل هذا بوالدي؟ أسئلة مازالت إلى الآن تحيرني، رغم أن تحقيق الشرطة، وتشريح الجثة لم يفض لأي شيء، وأغلق المحضر على موت طبيعي، مازالت إلى الآن ترتسم أمامي ملامح ضابط الشرطة وهو يسلمني نتائج التحقيق، قرأت على ملامحه ريبة شديدة، هو أيضا ما كان مقتنعا بنتائج التحريات.

بعد ذلك تغيرت كل حياتي، صرت أكثر سعادة، وصارت والدتي أكثر حرية، اتصل بي بعض رفاق أبي وأغروني بأن أزج بنفسي في الحياة العسكرية، لأكون كما ظلوا يلوكون خير خلف لخير سلف، وضغطوا على أمي كي تقنعني، غير أني كنت عاشقا للحرية، أمقت وظيفة والدي التي لم تجعل منه إلا صنما باردا، بارد المشاعر والعواطف، يلهث دوما خلف إشباع غرائزه حد القسوة على نفسه، ولو كنت مقتنعا بدعوتهم لاقتنعت بها من والدي الذي فارق الحياة غاضبا مني.

كان والدي يتمتع بصحة جيدة، ما شكا قط من علة، يقف منتصب القامة كأيام فتوته الأولى، يتحرك بخفة رغم بروز بطنه قليلا، والذي اعتاد أن يمرر عليه راحة يمناه، كالمفتخر به، يشرب الخمرة بإسراف منتقيا أجودها، ويدخن بإسراف أيضا أجود أنواع السجائر، التي يمتصها بنشوة كبيرة، يجذب نفسا بعمق حتى تمتلئ رئتاه، ثم يدفعه على مهل حتى يتشكل فوق

رأسه سحابا مركوما.

بعد أشهر من الحادثة لمع في خاطري جواب عن سر وفاة والدي، كأنما اكتشفت الحل فجأة، تنزل علي من السماء كالوحي، أبي مات مقتولا، وأدركت للتو من فعلها، لن يكون إلا الجيش الذي ينتمي إليه، هناك سر ما يقف وراء تصفيته، إما أنه استعمل في قتله أساليب ومواد لا يمكن الكشف عنها، أو ظهرت للمحققين وطلب منهم طي الملف، وطي أفواههم.

وسواء كان هذا أو ذاك، أو لم يكونا تماما، فأنا سعيد، لقد صار لي بيت خاص اتخذه خلوة لأمارس طقوس الفن، وأحاول أن أفجر عبقريتي الإبداعية، لم أكن مدخنا كما لم أذق الخمرة إلا مرة واحدة في حياتي وأنا في مراهقتي حين سرقت لوالدي زجاجة جرعتها مع بعض رفاقي في غابة المدينة، كما لم تكن لي رغبة في النساء، ما كنت أتصور الغريزة الجنسية إلا لإنجاب الأولاد، وطالما هُم قيد معيق في الحياة، ما كنت أفكر في أية علاقة جنسية بالمطلق، كان الرسم خلاصي الأوحد في هذه الحياة، بل الفن عموما، أنتشي وأنا أعزف مقاطعي المفضلة على العود الذي درست العزف عليه، تحلق روحي في السماوات العلى، أهرب به من كآبة الحياة ولاجدواها، أذيب به جليد الإحباط والانكسار.

11

كان الجو رائقا، بعض سحب منتاثرة هنا وهناك، يراود بعضها البعض في حميمية عجيبة، تتعاشق ثم تتهاجر، كأنما تخط أروع معلقات الحب، شمس دافئة تتربع في عرش السماء فرحة مزهوة، البيضاء مترعة بالخضرة وهي تمتد بدلال على شواطئ البحر، وهو يغسل قدميها كأنما يقدم قرابين الولاء، رحت انحدر إلى متحف باردو، تتهادى سمرائي عن شمالي وقد طوق ذراعها ذراعي، نحن الآن نخطو بثبات لتأسيس عشنا الحالم، أسابيع قلائل وتدوي أفراحنا في قلب البيضاء.

تعودنا على زيارة متحف باردو، بحكم قربه من مدرسة الفنون الجميلة أولا، وبما يمنحه لنا من هدوء وسكينة ثانيا، نرشف قهوة، نناقش قضايا الفن، نعانق أحلامنا، نزرع بساتين من فرح لمستقبل واعد، حتى صار مكاننا تحت شجرة الدردار المسنة مقدسا، يستحق فعلا أن نقدم إليه قرابين الولاء.

لم تكلمني عن ماضيها، بما يجب من تفاصيل، كانت تؤكد لي كل مرة أن حياتها ابتدأت منذ التقينا، هل هي فعلا لا ترى لنفسها حياة خارج حبنا، أم أن ماضيها محفوف بالمآسي التي لا يمكن البوح بها؟ وكنت أتحين الفرصة لأفيض عليها بما أجرؤ على البوح به من ماضيّ، لا يمكن أن يكون الإنسان منفصلا عن امتداده في الزمان، حتى قبل ميلاده، وحتما سيستمر في المستقبل حتى بعد وفاته، مهما سعيت إلى التحرر فهناك ذوات تسكن ذاتي أيضا.

بمجرد أن جلسنا إلى شجرتنا المقدسة، أسرعت أبوح لها ببعض أسرار والديّ، ولأول مرة أفعل ذاك مع أنثى، ظلت تتابعني باهتمام، حتى إذا

ذكرت لها مهنة والدي واسمه التفتت إلي فجأة كمن لسعه تيار، وقرأت على ملامحها غضبا ممزوجا بحزن وكآبة، لزمت الصمت احتراما لمشاعرها، امتدت أصابعي إليها، تغير مزاجها كأنما عزفت لها لحنا خالدا، أشرقت علي بابتسامة دافئة، لكن لا بد أن أخبرها بكل شيء، تجاهلت النظر في وجهها، سرحت بعيدا وركبتاي تحضنان يديّ، ورحت أقص عليها تفاصيل ذلك اليوم التعيس حين وجدنا فيه والدي ميتا أو مقتولا في خلوته، التي هي الآن خلوتي، وعن جنونه وسفرياته، وعن مغامراته التي لم تكن لتنتهي، وعن غطرسته في التعامل مع الجميع، حتى مع أمي التي تزوجها بعد إعجاب مجنون، أمي التي ما زالت رغم رحيله تستحضر حضوره المقدس، كلما همت اليوم بفعل شيء ما إلا واستحضرته، متذكرة ما كان يروق له يرحمه الله، وما كان لا يروق له، ولم كانت تفعل ذلك؟ هل هو حب رجل قوي عشقت فيه جبروتا طالما أَنِست إليه واستظلت بظلاله، أم خوفا منه ومن حماقاته التي كانت تصدر عنه من حين لآخر؟ لم يكن أبي يحمل غير عقيدة الجندية، وليس لمن يتعاملون معه إلا وجوب الطاعة والولاء، وزواج والدي مازال قصة تعلكها الألسنة في كل مكان، إعجابا تارة، وسخطا تارة أخرى.

أحسست أن مللا قد تسلل إلى أعماقها، طأطأت رأسها واضعة وجهها في كفيها، كأنما تهرب من حكاية لا تعنيها في شيء، بل تزعجها أيضا، ماذا لو علمت أنها الآن تجلس مع مجرم يمكن أن يزج به في السجن في أية لحظة؟ لقد كنت شاهدا على جريمة قتل بشعة لم أبلغ عنها، بل كنت شريكا فعليا فيها؟ ماذا لو علمت أني تلميذ خامل لأكبر مجرمي القتل؟ يسعى أن يحمّلني فلسفته في النظر إلى البشر؟ أن أكون خاملا جبانا خير من أن أكون مجرما سفاحا.

انحنيت قليلا وأنا أطوق سمرائي، وهمست في أذنها باسمي الحقيقي،

حين استوت بدرت مني ضحكة تكاد تكون هستيرية، هي الآن تعرف أني ميم، لكن والدي كان يسميني واوا، يصر عليها وهو يصدر إليّ أوامره العسكرية، أما إذا اشتد غضبه فلا بد أن يضيف إليها كلمة أعور، واو أعور، الواو الأعور، ضحكتْ كثيرا من وصف الواو بالعور، راحت تشكله في الفراغ بأصابعها، وتتخيله لوحة حروفية يستوي الواو الأعور على عرشها.

ضحكت سمرائي، وقمنا نغادر المكان، كنت هذه المرة أشد على أصابعها، كأنما أخشى فرارها، أنا مستعد أن أفرط في أي شيء إلا في سمرائي، صديقة وحبيبة وسكنا يتنزل على روحي، سمرائي هي كل شيء في حياتي، أنا الذي نشأت وحيدا، متشردا، متمردا، أطير من جزيرة للحلم إلى جزيرة أخرى، حين نزيل عن ذواتنا قشدة الحب، تبدو الحياة كئيبة رديئة لا تستحق الاحترام.

هُيّئ إليّ اللحظة أن والدي يطاردني بحزام سرواله، دون وعي مني اندفعت هاربا، لم أزد عن خطوة لأعود إلى طبيعتي، قرأت حيرة على وجه سمرائي، لم أزد على أن تبسمت في وجهها، وواصلنا المسير، حيث كانت تركن سيارتها.

12

في غمرة التحضيرات للفرح التي كانت قائمة على قدم وساق وفخذ أيضا، حتى أنني لم أكن ولا سمرائي نجد وقتا للقاء منفرد، ظلت جثة والدي تطاردني أينما تلفت، ليس بالشكل الذي رأيتها عليه أول مرة وهي مسجاة على البلاط، كنت طفلا صغيرا لم أزد عن الأربع سنوات، وكان والدي يداعبني بذات ملابسه، بذلته الزرقاء وقميصه الأبيض وربطة عنقه الحمراء، فجأة أخرج من جيبه كأنه الساحر الماكر، ديكا بريش ملون زاه، وبعرف أحمر كبير أكثر مما تعودت أن أراه على رؤوس الديكة، وبمنقار يمتد كأنه منقار لقلق، وبمجرد أن صاح الديك ذبحه والدي، كان الديك يرقص رقصات الموت المعهودة، يرتفع إلى الأعلى ثم يهوي، ثم يندفع إلى الأمام، يخمد لحظات ويعاود الكرة، وكانت دماؤه ترشني في كل جسدي، وكانت كل محاولاتي مسحَه عن وجهي تبوء بالفشل الذريع، فلا أملك إلا أن أعدو هاربا مفجوعا يملأ صياحي كل الكون.

ثم سريعا أنسى هذه الخيالات التي لا أدري ما الذي يدفعها إلى مخيلتي، وأنخرط في العمل مع ثلة الفنانين الذين تطوعوا مع سكان الحي لتلوين كل الساحة التي أسكن بها، كانت الفكرة من ابتكار سمرائي حين قررت أن نولد من جديد وسط الفن، كل الجدران المطلة على ساحتنا، وكل الأشجار، وحاويات الفضلات، والعين الفوارة التي صممتها البلدية ثم أهملت حتى علتها القاذورات، كل شيء يجب أن يتحول إلى لوحة كبيرة، تضم تجارب عشرة من الفنانين والفنانات، بين حروفيّ وتجريدي وسريالي.

كانت مهمتي هي توفير كل ما يحتاجه الرسامون من مستلزمات العمل الفني، وحتى ما يحتاجونه من متطلباتهم الخاصة، كالماء والقهوة والسجائر، وكانت سمرائي تشرف فنيا على العمل، تحدد الأماكن والزوايا، وتنسق بين الرسامين، وتمنح للوحة الكبرى روحها بوضع لمستها الحروفية في الفجوات بين اللوحات، ظل ميم وسين حاضرين دوما فيما تبدع، غير أن واوا أيضا تسلل بينهما وإن كان على استحياء.

آخر النهار كنت أنا أيضا على موعد مع الإبداع، وقد أصررت أن تترك لي مساحة داخل الحديقة، مقابل نافذة الغرفة التي ستجمعنا، كانت سمرائي قد أعدتها جيدا لتكون مهيأة لرسمتي، حين شرعت في العمل أبعدت الجميع عني، أغلقت خلفي الباب الحديدي المشبك، وغرقت في جنوني، لا بد من شحنة تركيز قوية، لا بد أن أفرغ كل عبقريتي في هذه اللوحة.

كان الجهد قد أخذ مني كل مأخذ، وأنا أجلس على الكرسي أتأمل لوحتي بكثير من الإعجاب، لقد حرصت على أن أجسد فيها كل تفاصيل حبيبتي، سمرتها النضرة، ابتسامتها المشرقة، نظرتها الدافئة، شعرها المنساب كشلال من الياقوت الأسود الذي يندفع من شواهق الرأس إلى منتصف الجيد، ثم يحول مساره إلى الخلف، سامحا للقرط الماسي أن يستعرض ابتسامته الشفقية، وقد انعكس على مرمر الجيد، مشكلين معرضا للدهشة.

واندفعت بالفرشاة نحو اللوحة أطارد خطأ في القميص الأبيض، وقد تبين لي أنه يحاصر بحسد حاقد العقد المرمري الأحمر الذي توقف مباشرة تحت النحر، حيث تستقر الواسطة أميرة تضيء على الصدر الذي بدا ناهدا عبقا بالفرح والأنوثة، ظلت الفرشاة في يدي على استعداد تام لاقتحام معاقل أي خطأ، وأنا أفتح عيني عن آخرهما أدور بهما في كل الاتجاهات كنسر يبحث

عن فريسة، حقا العمل الفني ليس مجرد شيء حسي، إنه روح تتجلى من خلال وسط حسي، الفن روح، إني أسمع اللحظة موسيقى الألوان، أسمع عزف العينين والشفتين، أحس دفء الملامح .

واقتحم الجميع علي خلوتي، ووقفوا منبهرين أمام اللوحة التي طوقَتها من كل جانب شجرة الياسمين العربي بأوراقها الثلاثية البراقة الملمس وأزهارها البيضاء الناصعة، ذات الرائحة العطرية القوية المنعشة.

لم تتمالك سمرائي نفسها وأجهشت ببكاء باسم، هذه اللوحة تذكرها بأول لقاء جمعنا في مدرسة الفنون الجميلة، وقد كانت بهذه التسريحة، وبهذا القميص الأبيض المطرز بالبياض أيضا .

ومدت أصابعها إلى العقد الأحمر، تتلمس ماساته، ثم التفتت إلي مبتسمة في عتاب حائر، طوقتها بيمناي بحب وسحبتها إلى الداخل، ليلحق بنا الجميع، نحن على موعد مع طبق الأسماك الشهي على شاطئ سيدي فرج.

13

ظل يتبعها في الشارع الطويل المؤثث بأشجار النخيل، كانت هي أيضا نخلة تمشي في خيلاء، مدثرة بهالة من كبرياء، كيف لهذه الفاتنة أن لا تفعل، والعيون تظل تطرزها بأوشام الإعجاب؟ وألسنة الجميع لا تسيل في سمعها إلا شعرا؟

ظل يتبعها لمئات الأمتار دون أن تأبه أو ترد، وعند بوابة الثانوية حدجته بنظرة ازدراء ودخلت كما اعتادت مع كل المعجبين، فلا يملك المطارد إلا أن يعود أدراجه، لكنه لم يجمد مكانه ولم يعد أدراجه، واقتحم خلفها الثانوية غير آبه بأحد، وما كادت ترى إصراره حتى عَدَتْ غزالة مفزوعة، وفي لحظات كان يتشبث بضفيرتها، ولم تملك إلا أن تستسلم لمخالب الأسد، مطأطئة الرأس كأنما تتجنب أية صفعة قد تنزل عليها.

حين رفعت عينيها قرأت في عينيه نظرة إعجاب واستعطاف، وعلى شفتيه ابتسامة لا تكاد تبين يكسر بها غلظته وشراسته، هدأت روحها رغم الألم الشديد الذي كان يتسلل من أصابعه الغليظة إلى منابت الشعر.

أطلق سراحها واستدار، ومن يجرؤ على رده وهو الفتى الضابط؟ كان في سلوكه اللامبالي هذا إهانة وخزت قلبها الصغير، رماها كقشة حقيرة لا معنى لها، في استدارته انتشاء بالنصر، ولامبالاة بها.

راحت تعيد شريط مطاردته لها بكل تفاصيلها، تعيد كل كلمة تحركت بها شفتاه، تحس وقع أصابعه الغليظة وهي تشدها من ضفيرتها إلى الخلف، تعيد نظراته، وابتسامته، ثم لامبالاته وابتعاده عنها، ليس ما فعل حبا ولا إعجابا، مجرد غطرسة، كان يشبع شهوة للتحدي لا غير، من هو؟ وكيف تجرأ؟ ما

رأته من قبل، يبدو غريبا عن المكان والحي وربما حتى المدينة، إما أن يكون ذا نفوذ لا يخشى أحدا، أو هو متصعلك خارج عن القانون.

حين عادت مساء إلى البيت أخبرتها أمها أن خاطبا يريدها، وأن أباها وافق، وتراقص أمام عينيها عشرات المطاردين والعاشقين، لم تكن في سن الزواج، وأمامها أمد لاستكمال دراستها، وتحقيق حلمها في حمل أعلى الشهادات، لكن أباها بت الأمر وزوجها من الضابط الشاب، كان لضعفه وقلة حيلته في حاجة ماسة لرجل يقف معه، وحتما لن يجد أفضل من هذا العسكري، الزمن زمن قوة يا بنيتي، كن من تشاء ولكن كن قويا، الويل للضعفاء يا بنيتي، لم تستطع أن ترد، انسحبت إلى الحمام، وبكت بحرقة، تبا للضعيف تصادر حتى كرامته.

ولم تمض إلا أشهر حتى كانت هذه الفاتنة زوجة ضابط بقدر ما أحبها، وعبد جمالها بقدر ما أتعبها بجنونه، وأنا أشهد على شطر من هذا الجنون، لم تكن طبيعة تكوينه تعرف إلا إصدار الأوامر وانتظار تنفيذها بسرعة دون مناقشة، شعاره الحياة تستمر حين ننفذ الأوامر، ننتصر حين لا نناقش القيادة.

رغم كل شيء سعدت والدتي بهذا الحب ولو كان عنيفا، استكانت لحماية قوية كانت تنعم بها وتفاخر، ومع مرور السنوات تعودت عليها، بل ربما كانت تتلذذ بها أيضا.

في السنوات الأخيرة كانت والدتي تتبرم كثيرا من تصرفات والدي الطائشة، كانت تراه يسرف في التدخين فتنتقده بشدة، وربما كانت تحس أنه يشرب خمرا أيضا لكنها كانت تكتم ذلك، لا تزيد على أن تتوجه إلي بالكلام، محذرة من مخاطر الخمرة، وكان والدي يعي أنه المقصود فلا يزيد على أن يؤيدها مبالغا في تحذيري أيضا.

رغم ذاك لم تكن والدتي تقبل أبدا كلمة سوء في والدي، حين يكون غائبا فهو مقدس، لا يجوز لي أن أنظر إليه إلا بمثل هذه القداسة، أبوك ليس رجل البيت فحسب، هو أيضا رجل الوطن، تحاصرني بشواظ من عينيها كلما شرعت في انتقاده.

يظهر أن والدي كان طائشا منذ صباه، كثيرا ما تناهي إلى سمعي من أصدقائه الذين كبروا معه في الحي والمدرسة مغامراته التي لا تنتهي، وكان عمّار الجان الذي صار معوقا فيما بعد لا يتنقل إلا بكرسي متحرك، كان يحلو له كثيرا أن يحدثني عن مغامراتهما المشتركة، وعن المعارك التي كانا يخوضانها في كل مكان، خاصة في الملاهي الليلية وفي مطاردة الفتيات، ورغم أن عمّار الجان قد تغير كثيرا، فإنه ظل يحب والدي ويكبره، بل ويفاخر به كونه ضابطا كبيرا في الجيش، وظل والدي أيضا رغم تعاليه على الجميع على علاقة طيبة بصديقه القديم، يزوره أحيانا، ويرسل إليه في كل مرة هدايا مختلفة، طالما حملتها إليه.

14

تم إعداد كل شيء، لم يبق الآن ما يحيل دون إقامة حفل الزفاف الذي أردناه مختلفا تماما، سنقضي هذه الأيام الثلاثة في راحة استعدادا ليوم الفرح الأكبر، ماعاد الزواج بالنسبة إلي دخول قفص ذهبي، الزواج من سمرائي تحليق في الفضاء اللانهائي، انطلاق نحو الحب والخير والجمال.

لم استيقظ باكرا كالعادة، رغم حركة المارة والسيارت، ورغم أشعة الشمس، وصخب العصافير وهي تعبث على أشجار الحديقة، رغم كل ذلك بقيت ملازما فراشي، أعيد شريط ما مر بي من مآس وانكسارات، وما عشته أيضا من فرح وانتصارات، وذي الحياة أمواج يمحو بعضها بعضا.

فكرت مرارا وأنا في بداية فتوتي في الهجرة، بحثا عن بشر يقدرون ما أنجزه، بشر يرضعون الفن مع حليب أمهاتهم، ويتنفسونه مع نسائم صباحاتهم، لا فن دون حرية، الحرية طائر مذبوح في أوطاننا، لكني تراجعت، الهجرة أيضا أنانية واستسلام وانهزام، مادام الفن التزاما فلابد للفنان أن يشعل مصباحه حيث يتراكم الظلام، يجهر برسالته حيث يُرجم بالحجارة.

يقينا إن الحياة الآن مازالت قاسية، ما أصعب حياة الزهرة التي تعبق حيث ترعى الخنازير، لا معنى لأناس لا يملكون ذوقا فنيا، ولا يقدرون كل ماهو معنوي، المجتمعات في نظري تقاس بمستوى ما يملكون من فن، وأين الفن عندنا، في أنفسنا، في بيوتنا، في شوارعنا، في مدننا؟ لا شيء من ذلك مطلقا.

لاشيء، لكن نحن ماضون على درب الفن مهما تناوشته براثن القبح والكره.

دخلت مقهى يتربع على ربوة في الحي المجاور، تعودت أن أقصده، تحس

فيه بالراحة المطلقة وأنت تتأمل صفحة البحر أمامك تمتد إلى ما لا نهاية، اقتنيت جريدة من بائع متجول، جلست حيث تعودت، أسرع إلي النادل بقهوة وماء، جرعت من الكأس، وبسطت الجريدة، هالني العنوان الكبير على صفحة البداية "العدالة تبرئ قاتل الفتاة"، وقفت في مكاني مرعوبا، ثم عاودت الجلوس، ارتفعت دقات قلبي، أحسست بالمخاطر تحدق بي من كل جانب، وضعت يمناي على قلبي، أحسست انقباضا شديدا يبدأ من أمعائي ويصعد إلى قفصي الصدري، تكاد أنفاسي تنقطع، تخمد دقات القلب، أنتظر الموت المفاجئ، أحدق عن يميني في الفراغ، يواجهني مقبض الكهرباء الأبيض المثبت في غير عناية على جدار من خشب بني لامع، تحدق فيّ فتحتاه، يخيل إلي أنه يضحك مني، تماسكت من جديد، اقترب مني النادل وقد لاحظ اضطرابي، حدجني قليلا كأنما يعرض علي مساعدة، ثم ابتعد مسرعا وقد أزعجه اضطرابي وأنا لا أكاد أستقر في وضع واحد.

قمت عجلا أغادر المقهى، أتخيل البيت الآن رحما حانية، قبل أن تلفظ الدرجات قدمي وقف أمامي يسد الطريق، في ملامحه براءة، رغم عينيه الكبيرتين المرتجفتين، وفي صوته بحة تكاد تكون حانية، لم يزد على التحية، تحية اللقاء وتحية الفراق، سلمني رسالة ثم اختفى وهو يعرج.

وصلت بيتي، دققت الباب، ثم رحت أبحث عن المفتاح، الذي لم يشأ أن يلج ثقب القفل بيسر، أسرعت إلى سريري دسست الجريدة تحت الحشية، ماكنت قادرا على قراءة العنوان مرة ثانية، ولا مشاهدة صورة السفاح، كيف يمكن أن يطلق سراحه؟ أي عدالة هذه؟ معنى ذلك أن الشرطة ستفتح الملف من جديد، ومعنى ذلك أني سأكون المتهم الأول، ما أتعسني! سأقضي ما تبقى لي من الحياة في السجن، هل يعقل يا عالم أن يكون فنان رقيق مثلي

مجرما؟ هل يعقل يا بشر أن تسرقوا مني فرحتي وقد امتلأت غبطة بالحياة؟

فتحت الرسالة بيدين مرتجفين، أطل علي بهدوئه المعهود "أعرف أنك تلميذ بليد، وهذا ما أرفضه، فأنا لا أقبل أن أكون أستاذا فاشلا، زملاؤك في كل مكان نجحوا بتميز، وبقيت راسبا، لا تخش، أنا لا أخون أتباعي، أنتظر أخبارك السارة الليلة أو غدا، أو على الأقل في بحر هذا الأسبوع".

جحظت عيناي، طويت الرسالة بهدوء كأنما أخشى خروجه منها، دسستها مع الجريدة، ورحت أسترجع كل جملها بصوته، وبكل ملامحه وإيحاءاته وحركاته، لعله يريدني أن أذبح سمرائي، وإن لم أفعل هل سيفعل هو بدلي؟ ربما، كل شيء ممكن، وتخيلت سمرائي تسبح في بركة دم، بالضبط كما كان يسبح فيها ديكنا ذو العرف الوردي العملاق، وذو المنقار الطويل كمنقار اللقلق.

15

حيرني طلبها لي هاتفيا هذا المساء، كانت تريد أن تلقاني في نادي النسيم، قرأت في صوتها انتكاسة لم أعهدها، ما الذي تريد أن تخبرني به، هل ستفسخ عقد الزواج بيننا؟ ليتها تفعل، بقدر رغبتي الشديدة في القرب منها أكثر كانت رغبتي أشد في الابتعاد أيضا، لماذا؟ لا أدري، هناك صوتان متصارعان في أعماقي، ما أقبح الحياة، كلما أظهرت لي وجها للسعادة كشرت من جديد، لقد أخبرتها عن شق من حياتي، وظللت أكتم عنها الشق المفجع، لا أرى ضرورة لذلك البتة، ليس من اللائق إخبار الناس بما يسرق أفراحهم ويعمق فجائعهم، وراودتني فكرة أنها قد علمت بما أخفيه، هل يمكن؟ وأنى لها ذلك؟ هل يمكن للشيطان الرجيم أن يخبرها، طبعا وما يمنعه؟

وقفت طويلا في الحديقة تأملت صورتها تشرق على المكان كله، تزرع الحياة في كل شيء، يعبق الياسمين من عينيها، سالت مني دمعتان، وددت لو مددت يدي لعقد الماس الأحمر الآن لآخذه معي، تذكرت مثيله الذي اقتنيته منذ أيام، عدت أدراجي إلى البيت، فتحت الخزانة الجوزية، أخذته كما هو ودسسته في جيب سترتي الداخلي، قد تكون الفرصة مناسبة لأقلدها عقدها، خرجت إلى الحي وقد أشرق بالفن الجميل، خيل إليّ مكانَ النافورة تمثالٌ برونزي، يقف باتجاه البحر، استدار التمثال، لم يكن إلا لحبيبتي السمراء، خطوت باتجاهه، تراذذ علي ماء النافورة، هل هي نبوؤة الخلود، من يدري؟ قد يقام لها تمثال في هذا المكان، واستدركت سريعا متمتما، بعد عمر طويل.

كانت قد سبقتني إلى النادي، رأيتها تملأ الزاوية دهشة، هبت إلي كنسمة فجر

منعشة، وجلسنا، أسرع النادل إلينا بقهوتين كالعادة، طلبت أيضا عصيرين، وحبتي كعك، وأشارت بيدها إلى نفسها وأومأت أنها السيدة الآمرة.

تبسمت، وضعت راحتي مبسوطة على صدري وانحنيت طاعة، لا يظهر من ملامحها أبدا ما هجست به نفسي الأمارة بالسوء، قبل أن يعود النادل أخرجت من حقيبة يدها ظرفا، دق قلبي وتعلقت عيناي به، صدق حدسي إذن، كما أرسل لي اللعين رسالة، أرسل إليها أخرى، سريعا وزعت نظري في كل القاعة، لاشك أن هناك من يرقبنا، بضع عشاق يتجاذبون حبا وهياما، وحيد لم أستطع أن أعرف أين تتجه عيناه وقد غطتهما نظارته السوداء الكبيرة.

وصل النادل إلينا وراح يضع حمولته، لم أكن أرغب إلا في رشف قهوة سوداء، هل يمكن أن تكون ضجرة وتطلب كل هذه المشروبات والمأكولات؟

فتحت سمرائي الظرف، لم يكن به سوى صورة وحيدة، سلمتها لي، تأملتها مليا، يظهر أنها صورة لزوجين في منتهى السعادة، كهل في الخمسينيات، وفتاة لم أستطع أن أحدد سنها بالضبط، إن كانت زوجته فلن يقل سنها عن الثلاثين، أو ربما حتى الأربعين، وإن كانت ابنته أو عشيقته فلعلها أكبر من العشرين قليلا، وهو ما تفصح عنه الصورة.

رفعت فيها بصري، أستعجلها في الكلام، مدت خنصرها إلى الصورة وأنبأتني أنهما والداها، اللعنة كأنها ركبت منهما، سمرة أمها، ابتسامتها، شعرها، وجه أبيها البيضاوي.

فعلا كانت أمها فاتنة ذات نظرة ارستقراطية راقية، انسجام ملابسها وطريقة تفصيلها تكشف عن طبقتها الاجتماعية، وقفتها تكشف عن ثقة كبيرة بالنفس، على وجهها ترتسم ابتسامة نصر عريضة، عكس ابتسامة أبيها

التي كانت باهتة، رغم حمرة وجهه وامتلائه، كان يطوق كتفيها، حتى تبرز أصابعه متشبثة بأعلى ساعدها الأيسر، وكانت تحيط خصره بيمناها وقد برزت أناملها.

انتظرت حتى أعيد إليها الصورة، لتندفع متحدثة دون مقدمات عن والديها، اقتنعت أخيرا برأيي، في أن المرء قد يكون نسخة من والديه، بل ولا يمكن لأي منا أن يهرب من هذا الامتداد.

دون أن ترفع عينيها عن الصورة راحت تحفر عن جذورها الممتدة إلى أعماق تلمسان، اليانعة في وهران الباهية، تهتز رعشة شائقة حين يتسايل رضاب المكان على لسانها، ولعل شوقها للمكان أكبر بكثير من شوقها لأيّ كان، المكان رحمنا الذي يشكلنا، يصنعنا، يخلقنا.

امتلأتُ حياة وأنا أتابع قسمات وجهها، وإيقاع منير بشير يعزف على العود مقطوعةَ نسمات، فتصير سمرائي أمامي لحنا سرمديا ملائكيا، أنتشي في الحضرة مريدا، ترفرف أحلامي حواليها، أنسى كل مآسي الحياة.

16

بعد موت والدي أحسست نفسي طائرا مكبلا، كنت في حاجة إلى أن أكسر القيد وأحلق بعيدا، كلما ارتفعت بي الطائرة أحسست بحرية أكثر، كنت أرغب أن تمخر بعيدا في أعماق الفضاء، أن تخرج بي من كل الدوائر التي يعرفها البشر، حتى من خارج المجرة، من خارج الكون كله، حين نزلت بنا الطائرة مساء في الدار البيضاء، لم أطق حتى دخولها، هذه المدينة لا تثير شهيتي، بأحيائها الإسمنتية الميتة باردة، بمظاهر البؤس التي تواجهك في بعض أحيائها، بكثرة المدمنين والمشردين، بذبول عبق الانتماء، لذا كنت قد حجزت في الطائرة المتجهة إلى مراكش، كانت رغبتي جامحة في أن أمخر عباب التاريخ، أتنشق عبق الإنسان، الذي لم تشوهه المدنية البائسة.

لم أزد على أن دخلت الفندق وقد تجلبب الكون كله بالظلام، وقد تناهى إلى سمعي صخب ساحة الفنا، كان فندق الأندلس مدهشا حقا، تتعانق أشجار الزينة داخله في كل مكان، حين هممت أن أغلق باب الغرفة خلفي، فتحت هي غرفتها، تلاقت عيوننا، ابتسمتْ، ابتسمتُ وأقفلت الباب، أسرعت إلى النافذة وكانت تطل على فناء مشترك، لمحتها خلف الستار تقف طويلا متأملة، تثبت حقيبتها على ظهرها، وتنساب كنسمة تنزل الدرجات، وفي الكون كله موسيقى رومانسية حالمة، تكاد لا تُسمع إلا بالقلوب، استرحت قليلا، أخذت حماما، غيرت ملابسي، حملت جهاز التصوير، وخرجت.

كانت الأصوات من الساحة تسحبني إليها، كنت في حالة سحرية عجيبة، الساحة تعج بالحياة، تعبق بالفن، أينما تول وجهك فذلك عبق

الإنسان وعبقريته، يجمعان في لحظة من زمن، وفي شبر من أرض القرونَ والحضارات، فنانون وسحرة ومشعوذون، ورسامون وطباخون، ومزينون وقرادون، ووووو و، لكل وجهة هو موليها، وإليهم جميعا تشد الرحال، ترى الخلق بكل أطياف البشر يأتون من كل فج عميق، أيها الخلق حجوا إلى مراكش من استطاع إليها سبيلا ومن لم يستطع، بائسة هي المدن التي فقدت عذريتها، الويل للمكان يبيع شذاه.

شربت كأس مانقا، وانسحبت إلى عرافة ظلت تتابعني بعينيها اللتين ما كان يظهر غيرهما، واسعتان حوراوان، مدهشتان، ما الذي تكشفه لي وأنا أدرك يقينا أن مستقبلي سيكون قاتما، مجرد حدس يظل يطاردني، الحظوظ تورث كما ملامح الوجه، ولون العيون، وفصيلة الدم، ما الذي يخفيه هذا الجلباب من جمال مغربي مشاكس؟

مدت أصابعها المطرزة بالحناء، أسلمتُ أصابعي لراحتها، وضعت يدها الأخرى على رأسي، وراحت تتمتم بأوراد لم أفهم منها شيئا، دون أن تتوقف أناملها عن ذر البخور في مجمرتها الفخارية الصغيرة، أحسست بالراحة تسري في كل جسدي كأني أُخدر، صرت رضيعا في حضن أمه، دعقتْ كفي بأصابع يديها ثم راحت تتبع بسبابتها تارة وبخنصرها أخرى مسالك حظي الوعرة، وكنت أرفع إليها من حين لآخر عينيّ، لأقرأ في عينيها رعودا وزلازل، أدهشتني وهي تخبرني عن محطات بائسة من حياتي، سحبت يدي من بين أصابعها، نقدتها دراهم، رفضت تسلمها، استدرتُ أجر خيبتي، وجدتها مرة ثانية تقف في وجهي، بذات الابتسامة الساحرة التي قرأت فيها هذه المرة انكسارا ساخرا من جلوسي كطفل بائس أمام العرافة، أو مما مضى ومما هو آت من مآس.

وسرنا معا وهي ترتني ما التقطت لي من صور، جلسنا نرتشف الشاي،

كنت قد نسيت العرافة، بل ونسيت كل شيء من حولي إلا هذه المراكشية المدهشة، هي ذي عرافتي التي كنت أبحث عنها، فاجأتني حين أخبرتني أنها ترغب في رد جميلي حين تحملت مشقة حمل متاعها في مطار مراكش، زويت عيني وأنا أتأمل ملامحها، لم أتذكر شيئا، كان الظلام والتعب، وربما لامبالاتي كافية لنسيان ملامحها، قضيت معها أكثر من ساعتين، أستمع إلى حكايتها، أتأمل تفاصيل الملامح السمراء، كأنني أعرفها مذ خلقنا، ما أروع هذا القدر الذي ساقها إلي! وما أكذب كل تكهنات عرافتي! إن لم يكن في مستقبلي سعادة إلا هذه اللحظات فإنها تكفيني.

ونحن نلتقي في آخر الليل على عشاء سمكي منوع، أخبرتني أنها دارسة موسيقى تخصص كمنجة، وأن لها صوتا ملائكيا يجمع الكثيرون على أنه مدهش، هممت أن أحدثها عن ميولي الموسيقية أيضا، لكنها لم تمنحني فرصة، ودون مقدمات مسحت أصابعها جيدا، استلت من حقيبتها آلة الكمان، ثبتتها على الجبد، صمت الليل كله، وغرق في رحلة صوفية يتشرب ألحان السمراء المرفرفة بأجنحة الملائكة من أناملها، كان الوقت سحَرا، رغم كل الهدوء الذي لفّ المكان، ترك من تبقى من سياح طاولات أطعمتهم الفاخرة وتمغنطوا نحو اللحن الحالم، يغمض معظمهم عينيه، يتهادى برأسه، ليرحل في العالم اللامتناهي.

صفق الجميع وهم يصحون من سكرهم، ابتسمت السمراء وراحت تنحني للجميع مرارا، دون أن تتوقف أصابع يمناها عن لملمة أغمار شعرها، لم أصفق، كنت أسند رأسي لكف يمني التي تعامد ذراعها على الطاولة، وقد ارتسمت على ملامحي ابتسامة الرضا والإعجاب الأقرب إلى الدهشة.

ونحن ننسحب إلى الفندق، أخبرتني أن ما عزفت كان مقطوعة للعازف العالمي عبده داغر، ثم عرجت تتحدث عن تاريخ الكمان المتطور عن آلة

الرباب العربية المدهشة، لزمت الصمت أصغي لحماستها كأنما تتحدث عن تاريخها هي، تستل الجمل من أعماقها وهي تلوح بيمناها، تشكل أصابعها بكل الاتجاهات كأنما تعزف بها على الهواء.

17

زارتني والدتي على غير العادة في خلوتي، بدت مضطربة خائفة، دون مقدمات طلبت مني أن أرافقها إلى مقر الشرطة، هممت أن أستفسر منها عن المبررات، لكني تراجعت تحت ضغط نظراتها الحادة.

حين جلسنا أمام الضابط، هزتني الدهشة وأمي تقدم إليه رسالة تهديد وصلتها منذ أيام، لقد انتقل السافل إلى أمي أيضا، لا مناص من أن أنظمّ لأثبت أني تلميذ نجيب، نجح الأستاذ العبقري في ترويضه وتدريبه، بدا الضابط قلقا مضطربا، وهو يعد المحضر، ويطرح على أمي وعليّ عشرات الأسئلة، كان اضطرابي واضحا، وكنت أكثر خوفا من أمي المهددة ذاتها، يمكن للضابط أن يلحظ ذلك بيسر، وهل يخفى الأمر على خبير مثله؟ حتما لن يذهب به الظن بعيدا، سيتصور أني خائف على أمي لا غير، لكنه أدهشني وعيناه مثبتتان في عيني، حين راح يكشف لنا أن المجرم غالبا ما يكلف أقرب الناس إلى المهدد لينفذ جريمة القتل، أحسست قلبي قد توقف دفعة واحدة، هممت بتحريك لساني، لكن فمي قد جف تماما، صار صحراء قاحلة تعصف داخلها ريح الهجير، عيناي وحدهما ظلتا تتأرجحان كعيني بومة هرمة مرعوبة.

لم نتكلم كثيرا ونحن نمخر الشوارع باتجاه بيتنا، إلا كلمات وأنصافا وأرباعا نبعثها من حين لآخر، فتتعثر في مهاوي الطريق، كنا نوزع أنظارنا في كل اتجاه، نتوجس خيفة من أي حركة، ومن أي سيارة أو دراجة نارية تمر قريبا منا.

ما لم تفهمه والدتي وظلت تلح في السؤال عنه وهي تتخفف من ثيابها، هو معرفة السبب من وراء هذه الجريمة، أردت أن أحدثها عن فرويد، وعن

السادية والمازوشية، ثم تراجعت، هي حتما لا تفقه في هذا الكلام، بل لا معنى له الآن، وتبادر إلى ذهني سؤال محير، هل جمع والدي بين السادية والمازوشية، وقد كان يوغل في تعذيب غيره وتعذيب نفسه؟ لكن الأولى أن أحيطها علما بما أعرف من أسرار عن القاتل، أليس من الأولى أن تعرف حماية لي ولها؟ وندت في أعماقي ضحكة ساخرة بائسة أليمة، ما أصلفني! هل سأخبرها أيضا أني سفاح كبير؟

تجرعت مرة أخرى من الكأس الفخارية المزخرفة، ولجت أمي المطبخ لإعداد الغداء، وضعت كرسيا قرب النافذة ومن خلف غلالة الستارة رحت أراقب الشارع الذي ينحني سريعا منحدرا إلى قلب العاصمة، لم تكن حركة السيارات بالتي تثير الريبة، كان صاحب محل المجوهرات بادي الإرهاق وهو عاكف على تنظيف زجاج المحل الكبير، وكانت بعض حمامات تحط حذرة لالتقاط حب على قارعة الطريق، ثم تعاود الطيران سريعا كلما اقتربت مركبة.

تناهي إلى سمعي صوت خضار متجول، انتظرته بفارغ الصبر، دنا من البيت، أصبح واضحا لي الآن، كل ما يراكمه هو قليل من البطاطا والجزر والبصل، وكثير من الفلفل، رغم قوة عضلاته التي أبان عنها قميصه البرتقالي، إلا أن دفع العربة شيء عسير عبر هذه الربوة ذات الطرق الملتوية صعودا ونزولا.

توقف البائع فحجب عني صاحب محل المجوهرات، الذي أسرع ينهي عمله، ثم يغلق محله ويغادر ملقيا التحية على البائع، الذي راح يقضم قطعة خبز مرة، ويفتت منها للحمام الذي تكاثر حوله مرة أخرى، دون أن يحول بصره عن بيتنا.

لن يكون إلا القاتل، وارتفع صوت أمي تدعوني للغداء، لبيت، وسريعا

عدت للمراقبة، لم يكن موجودا، خرجت أبحث عنه، كأنما كان مجرد سراب، سألتني والدتي، لم أشأ أن أخبرها بشيء من أوهامي، وانكببت على الطعام.

لم تكن أمي خائفة لدرجة كبيرة، كانت تتحدث وتتحرك بشكل عادي تماما، لكنها كانت حذرة، أردت أن أهدم حولها أسوار الخوف وأقنعها أنها رسائل صبيانية، ربما بعثها بعض الحسدة أو بعض المراهقين، ولن يجرؤ أحد على جريمة القتل، ثم تراجعت.

طمأنتها وأنا أغادر البيت مقبلا رأسها أن الجاني سيقع قريبا في يد الشرطة، ما دام قد قدم دليل إدانته.

كدت أقنع نفسي وأنا أسرع الخطو إلى البيت، من الممكن جدا أن تكون كل هذه الرسائل مجرد لعب أطفال لا غير، وهل يمكن أن يكون السفاح أيضا لعب أطفال، وقد شهدت جريمته بأمّ عيني؟

18

ظل شعرها اللولبي يعبث ضاحكا على أرجوحة الريح كلما أخرجت رأسها من النافذة متأملة السهول البكر التي امتدت على طول البصر، لا تقهرها إلى جبال الأطلس وهي تقف شامخة بكل كبرياء، كل شيء هادئ في الحافلة الراقية التي لم تكن تقل إلا حوالي خمسة عشر مسافرا كلهم أوربيون، بعضهم يتحدث بلغات مختلفة، وتظل عدسات كاميراتهم مشرعة الأعين في استعداد تام لتجميد أي لقطة في أية لحظة قد تمر وتتلاشى، إنه تخليد لمشاهد تمتطي سفينة الزمن الهارب إلى غير رجعة، نسيت كل همومي مع هذه الملاك التي تنزلت على قلبي بردا وسلاما، ماعاد شبح والدي يعترضني في أية زاوية، وماعادت الكوابيس المزعجة تنغص علي نومي، أخرجت تماما من مخي حكاية السفاح.

في الطريق نزلنا لاستراحة قصيرة، طلبت قهوة وكذلك فعلت، كانت تشير إلى كل الاتجاهات معرفة بها، وربما توقفت عند بعضها لتعود أدراجها إلى التاريخ القديم، وفجأة عرجت على قصة الأمير الشاعر بن عباد، الذي تركنا قبره خلفنا، وغرقت في حكاية مأساته، وقراءة الكثير من شعره، لم تكن هذه المراكشية عازفة فحسب، وعلى معرفة بتاريخ الفن العربي فقط، بل كانت ذات اطلاع واسع على تاريخ الأدب ورجالاته أيضا.

إن هي إلا ساعة من زمن، وأشرقت علينا الصويرة، دخلتها مساء الخميس، ترتدي ملاءة خضراء هاربة من جنات عدن، عجلنا إلى المدينة القديمة نختار أحد فنادقها الساحرة الموغلة في التراث، وهي تمد أقدامها إلى

أمواج المحيط الأطلسي.

مساء رحنا نوغل في أزقة المدينة القديمة، التي تظل تدهشك كلما أمعنت في مراودتها، مدينة تفيض إبداعا وفنا وجمالا خلاقا، حتى لتكاد تجزم أن فن الكون كله هنا منبعه، وأن لكل مبدع شريان يوصله بالصويرة.

وقفنا طويلا عند مئات اللوحات الفنية المنسابة من كل مدارس الفن، والمتمردة عنها أيضا، ولم تكن هذه المرة إلا مستمعة متعلمة، كنت أوغل في الحديث عن تقنيات فن الريشة، وعن لعبة الألوان، ولعبة الضوء والظل، حتى ترتسم عليها ملامح للدهشة، ثم تمد يدها إلى لوحة زكّيتها فتستخلصها لنفسها.

تجاوزت محلا صغيرا أكثر ما يغريك بولوجه زقزقة طيور مختلفة، غير أن الدهشة قد تملكتني وعيناي تحتضنان مملكة للإبداع لم أر لها مثيلا من قبل، أسلوب يتيم، وتفاصيل متناهية في الدقة، عوالم للحلم والخيال، عوالم للغريب والعجيب، يطوح بك إلى أعماق أعماق الإنسان الأولى، ذكرتني بنظرية اللاوعي الجمعي ليونغ، هل أراد الفنان أن يقول ذلك؟ هل أراد أن يقول لنا أن كل الذي نحياه في يقظتنا ونومنا إن هو إلا استحضار لعوالم الإنسان الأولى، كل شيء يحضر في اللوحة دفعة واحدة، الإنسان والحيوان، الطبيعة والأشياء، الحياة والموت، اللذة والألم، التعاسة والسعادة، الخير والشر، كل الألوان تحضر بفطرية مدهشة، بوحشانية تلقائية تعبر عن حرارة الانفعال، بتناغم يحيلك على اللامنتهى، يغوص بك بعيدا عن الواقع الكاذب، الواقع الزائف، الواقع الذي توهمناه، فوقعنا أساراه.

هل كان للإنسان أن يعيش أيضا واقعا أجمل وأرقى مما هو فيه؟ هل يمكن أن تكون الجنة التي طرد منها هي جنة الحلم لا غير؟ هل الواقع المؤلم هو النيران التي سيخلد فيها الأشقياء، لو كانت الجنة حلما كهذه اللوحة لكانت

كافية لإسعادنا، قرأت التوقيع صغيرا مندسا لا يكاد يبين، عبد الله الأطرش، واقترب منا، وكان يقف غير بعيد منا، لنغرق معه مرة ثانية في عوالمه المدهشة، التي ذكرتني ونحن نغادر المكان بعوالم بيكاسو، Picasso مع الفرق الواضح بينهما، انتصبت في مخيلتي جدارية الجورنيكا Guernica المفزعة، المُدِينَة لهمجية الإنسان ضد أخيه الإنسان، المنددة بالحروب وسفك الدماء، كانت لوحة بيكاسو استثناء في عالم الفن، والفن التكعيبي على وجه الخصوص، رماد في الألوان، ومأساة في ملامح الحيوان والبشر، وتخيلت رأس الحصان المتألم في لوحة بيكاسو يعبر الشارع وقد افترت شفتاه الغليظتان عن ابتسامة، أبانت عن أسنان مهشمة نخرة.

واجهنا مقهى، أغراني بالجلوس، كنت في حاجة إلى ارتشاف عصير يمنحني نشاطا، اختارت الطاولة، وأصرت علي أن أجلس تحت شجرة عملاقة، ونشطت تأخذ لي صورا عديدة تختار لها زوايا مختلفة، عادت إلى مكانها والنادل يضع أمامنا كأسي عصير طبيعي، وراحت تحدثني عن الأديب ادموند عمران المليح الذي كان عادة ما يجلس في هذا المكان بالذات، حتى عرف به.

قادتني بخطوات سريعة بين مئات السياح، والمدينة تستعد للاحتفال بعيدها السنوي القناوة، لتقف بي عند لوحة ضمت بورتريه، انشغلت بتفاصيله وأنا أحاول أن أنظفه مما علق به من عبث الأطفال، زممت شفتي تعبيرا عن عدم رضاي، أسرعت تخبرني أنها صورة المخرج العالمي اورسن ويلس Orson Welles الذي حصد جائزة الأوسكار عن فيلم موكادور وهو الاسم القديم لهذه المدينة.

بعد العشاء سهرت مع فاتنتي المراكشية على شاطئ البحر، كنت في حاجة إلى أن أنصت لنغمات الكمان التي رقصت لها الأمواج كثيرا، وطرب لها

المحيط حتى ثمل، وانتشت حبات الرمل فغنت تحتنا وحوالينا، ودغدغتني أصابعي شوقا لرنات عودي، ليته كان بين يدي الآن.

صباحا فاجأت ساحرتي بصورة لها وهي في حالة انتشاء وحلول مع أنغام الكمان، ثبتت نظارتها الشمسية على رأسها تكبل أغمار شعرها الذي راح يتراقص على عينيها كأنما يداعبها، وظلت لدقائق تقلب عينيها في تفاصيل الصورة، وقد ارتسمت على ملامحها ابتسامة ساحرة، كنت أتابع تفاصيل ملامحها وأخزنها في الذاكرة، للوحة قادمة.

19

بمجرد عودتي من المغرب كانت والدتي لي بالمرصاد، ظلت تحضنني طويلا طويلا، تكاد تدخلني في أعماق أعماقها كما لم تفعل من قبل أبدا، لعلها كانت تخشى عدم عودتي إلى البيت، ودون مقدمات طلبت مني أن أتزوج، ليس لها غيري في هذه الحياة، بعد أن فقدتْ والدي ومن قبله فقدتْ ابنتها وهي في أوج فتوتها، ولاحظت حيرة لدموع اضطربت في عينيها، تشبثت بشرفة الرموش ثم تهاوت منتحرة.

لم أفكر البتة في الزواج، وإن كنت فاعلا فليس أدفأ عندي من المراكشية، وحلمت بها الآن إلى جواري تعزف ألحانها الحالمة الفرحة والحزينة على كمنجتها الصغيرة، فيدغدغ صوتها الملائكي شغاف قلبي، ورأيتها تأتي من بعيد حمامة من سنا تغشاني عشقا وهياما، فعلا من لم يتمركش لا يعوّل عليه، وغرقت في خيالاتي استرجع شريط الأيام الدافئة التي قضيتها بين مراكش والصويرة، هناك عشقت وأبدعت وتمردت، وهناك احتسيت خمرا من كل الدوالي، هناك كنت كنورس بحري تنسم الجنون ملء رئتيه، راحت ذاكرتي تسترجع بعض لحظات الهيام وقد توشحت المراكشية بجلبابها المطرز وانهمرت تغني بصوتها العندليبي الساحر، كانت ملامحها الفاتنة تحتل كل حواسي، وأحسست ذاتي زورقا يمخر البحار والمحيطات، يتحدى أعتى الأمواج، أخرجتني والدتي من سبحاتي وهي تهز كتفي برفق، سألتني إن كانت لي من أرغب في الاقتران بها، خزرتها وتبسمت، ثم قمت من مكاني، قبلتها على رأسها وخرجت.

لحقت بي وهي تتمتم بأدعية لا تنتهي، لم التفت إليها، خرجت مباشرة باتجاه خلوتي، أدرك عميقا ما تفكر فيه والدتي، أعي جيدا ما أمثله لها، مرارا أفاجئها تحمل صورة أبي، وقد سالت دموعها، مرارا تجلسني في حضنها وتظل تمشط شعري بأناملها دون كلل، تمسد صدري دون ملل، ليس لها الآن في كل الوجود إلا أنا، أنا الابن، أنا رائحة الزوج، ورائحة البنت، أنا الأب والأم، أنا الحياة كلها.

دخلت عزلتي على عجل، وقفت طويلا عند اللوحة التي رسمتها للمراكشية ونحن بالصويرة، كأنها هي الآن أمامي بشحمها ولحمها، بابتسامتها الساحرة، بصوتها الملائكي المدهش، وامتلأت الغرفة علي عزفا، أسرعت إلى الخزانة، استخرجت قرصا كانت قد أهدته لي، ثبته، فانطلقت أنغامه، أنغام العازف المغربي الشهير عبد العزيز احباري على آلة الكمان، طالما أكدت لي إعجابها به، مبدعا وفنانا ومدرسة في العزف، لم تجلس إليه تلميذة، ولكنها تعلمت منه الكثير، أولها روح التفاعل العميق مع الآلة التي تغدو بين يديه كائنا حيا ناطقا بالعبقرية، وأساسها الحلول في اللحن والتحليق معه بأجنحة الحلم مثنى وثلاث ورباع.

لم أفكر أساسا في الزواج، رغم تقديري الكبير لحلم أمي، ما كنت أنظر إلى المرأة إلا روحا مقدسا للجمال والخير والمحبة، ملاكا للمودة والسكينة، كان كل حلمي أن أحقق فتوحات في عوالم الفن، انصب اهتمامي مذ وعيت على التشكيل، مارست الرسم والنحت ووقفت طويلا ممتلئا إعجابا أمام روائع الفن العالمي، استمعت إلى الموسيقى تنساب شلالا للعبقرية في كل الكون، تعزفها السواقي والرياح والطيور والأمواج والنباتات، ومناغاة الصغار، عشقت العود والناي والقانون، وتأوهت طويلا مع الأوتار تداعبها أنامل فريد الأطرش،

وعَلّة، ورياض السنباطي، ونصير شمة، ومنير بشير وغيرهم.

وعشقت فوق كل ذلك حريتي، بمثل ما كنت أمقت أبي في طغيانه، كنت أشفق على أمي المسكينة، التي ما كنت أراها إلا حسّونا في قفص من حديد، ما الذي حققه لها أبي سوى أنه اختطفها، اغتصبها، سجنها سبية، أمَةً في مملكته، يُثبت من خلالها رجولته أمام أقرانه، ما كانت في نظري إلا غزالة مسجونة، ورغم ذاك فإن أمي رضيت وعشقت فسعدت، والمرء إن قنع عاش سعيدا.

لم تزل أمي تفيض شبابا، ولا شيء يمنعها من أن تتزوج الآن، وتنعم بحياتها من جديد، مع رجل آخر يحبها ويقدر إنسانيتها، ويزرعها زهرة في بساتينه، يحيطها بالإعجاب والرعاية، تبا لي كأنما الزواج علاقة ميكانيكية.

إنها مجرد خواطر تطوف بي دوما، الويل لي أن سمحت لها بالظهور، أحست مني والدتي يوما ذلك وقد قلته تلميحا فخاصمتني أكثر من شهر لا تكلمني إلا إيحاء.

20

كان أبوها طبيبا عاما، يحمل أحلاما كبيرة في أن يتخصص، وأن يبدع فيسهم في تخفيف الآلام عن ملايين المرضى، لا يهم فيما يكون ذلك، مجالات التحدي التي تقف أمام الطب لا حصر لها، وآلام الناس تكاد تجرح كبد السماء، ما معنى أن يعيش المرء عقودا على الأرض تحضنه بكل الحب وتخدمه بكل سخاء، ثم لا يقدم لها شيئا؟

خرج أبوها من رحم البؤس، فتح عينيه في الأحياء الفقيرة، حيث آلام الناس أشد، حيث معاناتهم أكبر، تسلق سنوات دراسته بأظفاره كأنما يتسلق صفيحا ملتهبا، ظل وهو يدرس الطب يقسم وقته بين الجامعة وفقراء الحي، هو الطبيب وهو الممرض وهو الصيدلاني، يسمع أناتهم ويبلسم أوجاعهم، لا يروق له النوم إلا إذا اطمأن الجميع ونام، ولم يكن يفعل ذلك مجانا، كان الجميع يدفع له دعوات نقيات، وحبا يعرش حوله دوالي للسكينة، وكان هو يمضي مشحونا بكل ذلك.

لم يمض عام على تعيينه طبيبا في حي الحمري بوهران، يمخر الشوارع في غدوه ورواحه، يمتلئ حياة، يسعى أن ينقلها إلى الناس كلهم، يجلس إليهم يستمع بتواضع وصبر لآلامهم وانشغالاتهم، ورأته فقررت أن تصطاده، أن تستخلصه لنفسها، أن يكون لها من دون العالمين، ورآها وهي تنزل من سيارتها فتملكه السحر من كل جانب، وغدا في لحظات أسير أنفاسها.

ظلت تشحنه بطاقة التعالي والكبرياء، فلسفتها في الحياة أن الناجحين غير مسؤولين عن فشل الفاشلين، فلسفتها أن كل إنسان عليه أن يحصد ما

زرعت حظوظه، فلسفتها أن السعداء ليسوا مكلفين أن ينوبوا عن الله في إسعاد الأشقياء.

وبقدر ذلك كانت مدهشة في أناقتها، لا يمكن أن تضيف إليها شيئا مهما أوتيت من عبقرية الخلق والإبداع، تعبق بها العطور، وتتزين بها الفساتين، وتزهو بها الألوان، وتحاصرها العيون إعجابا وحسدا، ورغم اعتدال قامتها، إلا أنها كانت ممتدة الهامة، معتدة بنفسها، نقلت والدها إلى مصاف الطبقة الأرستقراطية، فتغير ملبسه ومطعمه ومسكنه، ومع كل ذلك تغيرت نظرته للحياة وللناس من حوله.

رغم كل هذا التحول الجذري في حياة والدها، والذي أنساه حتى والديه وأسرته التي تركها خلفه في إحدى أحياء تلمسان، فإنه لم يسعد أكثر من أشهر قلائل، أدرك بعد فوات الأوان أنه سرق من محيطه الطبيعي، لم يعد الهواء هواءه، ولا الماء ماءه، بل ما أحس أن القلب الذي اختطفه قد غدا يخفق له.

كانت أمها عصبية، عنيدة، تظهر عند كل بداية حمامة بيضاء، يكفي أن تزيغ قليلا عن السبيل الذي تريدك أن تسير فيه، والهدف الذي تريدك أن تصل إليه حتى تتشعبن.

انكفأ هو على أحزانه، يلوكها علقما شائكا، وتطرفت هي في تحقيق طموحاتها التي لم تكن تراها إلا في أن تمتلك الحياة من كل جوانبها، أن تعدو فيها كمهرة راق لها المرج، لم ينجبا في بداية الزواج، ثم جاءت السمراء إلى الوجود كالخطإ الذي يكاد يكون خطيئة.

مذ أدركت السمراء الحياة رحلت إلى العاصمة، لم تعد البتة إلى تلمسان حيث أهلها، ولا إلى وهران، حيث ترعرعت في حي الحمري، آمنت أن الفن هو سبيل الخلاص، ولكنها مازالت تعاني حتى اللحظةَ، تجرع مأساة والديها رغم محاولتهما

ملء هذه الفجوة بها وفراه لها من سند مادي كبير، لكن هيهات.

وانفجرت تبكي بحرقة شديدة.

رحت أضمها إليّ أحاول تهدئتها، تمتد أصابعي بمنديل ورقي إلي خديها أقطف عنهما قطرات ندى تنساب من أكمام عينيها، ركنت رأسها إلى عش صدري، سكنت، سكتَ عنها حزنها، يمكن أن تلتقط عين الصوارة لنا لقطة يتيمة، لكن لو بعثتها لوحة ستكون فريدة دون شك.

21

لم أكن قد بلغت السادسة من عمري حين أنجبت والدتي بنتا، قبلها بأسابيع كان الجميع فرحا استعدادا للحدث العظيم، رغم حيرتي الكبيرة، التي جعلتني أتقوقع مفكرا، وأنا أتخيل بطن أمي قد انفجر وخرجت منه التي سأسميها أختي، فقد كنت أيضا أنتظر الحدث ببالغ الصبر، ألتصق كثيرا بأمي، وأرتمي في حضنها، تنتابني مشاعر شيطانية، سأخنق الصغيرة حتما، حلمت ذات مساء – وأنا أندس بين الجدار والخزانة دون أن أنام– أني فقأت عينيها، وأن والدتي بمجرد أن اكتشفت فعلتي قبلتني كثيرا وهي سعيدة، أما والدي فقد راح يبحث عني في كل مكان، وبيده خنجر كبير، يرغب في ذبحي، استطعت أن أهرب إلى بطن أمي، وحين لم يجدني ذبح أمي بدلي، عليه اللعنة.

أفقت في تلك الليلة وأنا أبكي بهلع، وألتصق بأمي، التي ضغطتني إلى صدرها مهدئة من روعي، لم يكن معنا أحد في البيت، كانت أمي، تداعب رأسي الصغير، وتؤكد لي أن والدي سيعود، وسيحمينا من كل المخاطر، وكنت أعلن عن رفضي، مؤكدا أنني سأحمي نفسي ووالدتي بقوتي فأنا أيضا رجل كبير، ولا تملك أمي إلا أن تضغطني أكثر تعزف أناملها بحنان على شعري مؤكدة لي أني رجلها الكبير.

وظلت والدتي إلى اليوم تعيد على مسامع الكثيرين في كل فرصة حكاية ابنها الطفل الرجل الكبير، دون أن تعرف حكاية الحلم المزعج الذي رأيته في طفولتي، والذي مازال يزعجني إلى اليوم.

احتفاء كبير شهده بيتنا وأختي ترى النور، مهنئون ومدعوون، زغاريد

وأغان، أفراح وضحكات، وكادت المناسبة تتحول إلى عرس، تزف فيه أختي الصغيرة عروسا، وكانت والدتي تعجل إليها، تضمها إلى حضنها وتلقمها ثديها كلما طلبت ذلك بصيحة بكاء أو حركة من رأسها الصغير وشفتيها، وبمجرد أن أرى ذلك كنت اندفع ملتصقا بجنبها، تدفعني برفق راجية مني أن أذهب للعب فأنا كبير.

قدمتها لي والدتي لأقبلها، لم أزد على أن دفعتها بعيدا، وأنا أشير بيدي الصغيرة أني سأذبحها، وأثارت حركتي موجة من الإعجاب والضحك داخل البيت، خاصة وأنا أتراجل خارجا من البيت.

ذلك المساء تبولت جهارا نهارا على سرير أمي، التي لاحقني صياحها، في الليل تبولت في فراشي، ولم تستطع أن تصرخ، لقد كانت نائمة.

كل هذه العواطف السلبية تغيرت مع الزمن، لم يعد أقرب إلى نفسي من أختي، نلعب معا، نأكل معا، ننام معا، نسعى في شعاب الحياة معا، وبقدر ما كانت كاملة الجمال كأنما هي نسخة من أمي كانت راقية الإنسانية، نبيلة العواطف، تحرم نفسها وتمنحني، تتعالى على جراحاتها وترضيني، تنزف وتبلسمني، وكانت النموذج في مدرستها، إلى أن حاصرها القدر الذي لا مفر منه.

كنت أشفق على والدتي وهي تستسلم لبكاء خفي بعيدا عنها، كنت أحس بما يمزقها من الداخل، ما كنت أرى دموعا، لكن كنت أرى جراحا ودماء، ولا أملك إلا أن أتفجر عيونا من مآس وآلام.

ماهذا العبث الذي يغتال أفراحنا فجأة؟ يمد مخالبه فيزرع القحط في أغمار أحلامنا؟ وكنت أكثر ألما من أمي، وكان والدي أشد ألما من الجميع، كان يبكي من الداخل، كان يحترق من أعماق الأعماق، امتنع عن النوم والطعام،

ظل رفيق الحزن والسجائر، وظل رفيقها لا يكاد يغادرها إلا لأمر ضروري، حتى أسلمت الروح.

مذ ذاك صار والدي رجلا آخر، تغيرت كل طباعه، فقد كثيرا من إحساسه بجمال الحياة، لم تعد تعنيه أمي كثيرا، صار وفيا أكثر للكأس والسيجارة، ولكل السهرات العابثة التي كان يقيمها على شرف عشيقاته.

وانكفأت أمي على ذاتها، تغرق في عبادة صوفية عميقة، لا علاقة لها بالدنيا إلا من خلالي أنا.

وهرعت أنا إلى الفن أتسامى به عن الجراح، اقتنيت مئات الأوراق البيضاء، وعكفت على رسمها، كأنما كنت أرغب في إعادتها إلى الحياة، وحاولت مرة أن أقيم لها تمثالا في حديقة بيتنا، وحين فشلت لم أزد على أن دفنته، وقضيت ليلي باكيا.

22

اهتزت المدينة على أكبر عمليات مداهمة تقوم بها الشرطة لأوكار الجريمة، وأشيع سريعا بين الناس أن كبير السفاحين قد وقع في الفخ، وتنازعتني هواجس رهيبة، فرح وحزن، شجاعة وجبن، سمو ودونية، كانت الساعة العاشرة صباحا حين وقعت الحادثة، لم يبلغ منتصف النهار حتى صارت على كل لسان، بقيت طول الوقت في الشارع، أتشمم الأخبار المتناقضة، تناولت غدائي بالخارج أيضا، وشربت قهوتي التي اعتدتها بعد الغداء، اقتنيت بعض الصحف وعدت.

كنت طيلة الصبيحة حذرا في كل حركاتي وسكناتي، أنتبه جيدا لكل ما يجري خلفي، خشية أن أكون مراقبا، يظهر أني لست كذلك، هل فعلا وقع السفاح في قبضة الشرطة؟ وهل حقا قبضوا على عدد كبير من أتباعه ومريديه؟ ممكن، ولكن لماذا يصر على عدم البوح بي؟ هل سيطلق سراحه مرة ثانية؟ أم كان إطلاق سراحه الأول مجرد طعم له ولجماعته؟ هل يمكن أن تكون رسالة التهديد التي وجهوها لأمي هي الخيط الذي أوصلهم إلى الوكر؟ ومتى سيحين دوري لألحق بالأتباع؟

حيرة كبيرة عصفت بي وأنا اتجه إلى بيتي، حتما تكون والدتي قد علمت بالخبر، وحتما هي تحتاط الآن في بيتها، وتطبق كامل الإجراءات الاحترازية التي أوصت بها الشرطة، والتي أوصيت بها أنا أيضا.

ترددت بادئ الأمر في استعمال الهاتف، خشية من أن يكون خطي مراقبا، ولكن سرعان ما غيرت فكرتي، لا حرج في أن أتصل بالوالدة لأسأل عنها،

وظل الهاتف يرن عشرات المرات حتى بحّ دون جدوى، وأثار ذلك في نفسي وساوس مزعجة، لكن والدتي سرعان ما عاودت الاتصال، وكانت تبدو بمعنويات عالية وقد بلغها أيضا خبر اعتقال السفاح.

أهملت الصحف جانبا، لا يمكن أن تقدم لي شيئا ذا بال، فلن تتعرض للحدث إلا غدا، شغّلت التلفاز، لم يزد عن الإعلان عن الخبر في شريط الأخبار، كما سمعناه جميعا، وكنت أرغب في معرفة تفاصيل أدق، لن يخطئني السهم هذه المرة، تستر علي أول الأمر لأنه كان على يقين أنه سيفلت من العقوبة، وليس من المنطقي أن يزج أيضا بمن يراهم تلامذته وأتباعه، أما هذه المرة، وقد ضيع بوصلة العودة فسيجرنا جميعا معه إلى غياهب السجن، سنجلس هناك تلاميذ مجتهدين أمام أستاذنا العبقري، وضحكت في نفسي ساخرا من غبائي.

يجب أن أواجه الشرطة بالإنكار؟ حتما لا يملك السفاح عني دليلا واحدا، فليذهب إلى الجحيم، كل ما سيقوله عني هو مجرد لغط لا يمكن تصديقه.

ورحت أمد النظر عبر النافذة، كل شيء بدا عاديا، حركات لمارة وسيارات تقلّ أو تكثر، ورياح كانت تهب باردة إيذانا بأمطار ستهطل قريبا.

أحسست فجأة بدوار خفيف، تملكتني الرغبة في النوم، حاولت أن أتخلص من ذلك، تثاءبت، تمططت، دون جدوى ثم أسرعت ألبّي نداء الرغبة، تدثرت غطاء صوفيا، انكمشت على نفسي تكاد ركبتاي تبلغان ذقني، عبثت بشعرات كنت أعتني بها تتدلى منتصف الشفة السفلى، أغمضت عيني وغرقت في نوم عميق، حرصت أن يكون على إيقاع ابتسامة عريضة، لكنه كان مترعا بكوابس لا حصر لها، كنت أتشبث وسط جرف هار، ليس له نهاية لأعلاه ولا لأعماقه، وكانت أختي تمد إلي حبلا أمد إلى نهايته ذراعي اليمنى

دون جدوى، كنت مفجوعا، وكانت أختي تصيح فيّ بأعلى صوتها، كي أتشبث جيدا بالحبل، كنت أرغب في أن أطلب منها كي تمده أكثر، لكن صوتي لم يكن يتجاوز شفتي.

تفقدت والدتي صباحا، كانت بأحسن حال وقد انزاح عنها كابوس السفاح، تنشط في تنظيف البيت وإعادة ترتيبه، لم أجد بُدّا من الانخراط معها، غيرت ملابسي، واندفعت إلى الحديقة، تحتاج أشجارها إلى التقليم، تحتاج أرضيتها إلى التنظيف، وتربتها إلى إعادة التهيئة، استعدادا لبذور أزهار جديدة، طالما كانت أمي تحرص على انتقائها بمهارة وتخزينها جيدا لفصل البذر.

23

جمعتنا ظلال مدرسة الفنون في حفل تخرجها، كانت كئيبة بشكل لم أرها عليه من قبل، ولم أملك إلا أن أنخرط معها في ذات الجو الحزين، كانت البهجة في كل مكان، وكان الطلبة في مهرجان ضخم، يفيضون حماسا ومحبة، ويشرقون فرحا وحبورا، يأكلون، يشربون، يقهقهون، يتعانقون، كنت أحضرت مجموعة هدايا، دون أن تفارق الكاميرا يدي لألتقط لها كل حركاتها وسكناتها.

اجتازت عرض مشروعها وناقشت مذكرة تخرجها، وردت على مناقشيها بكثير من الاقتدار والتمكن، لم تكن ابتسامتها إلا صفراء باهتة، ولم تكن نظراتها إلا عليلة حزينة.

بمجرد أن أكملت ارتمت في حضني باكية بحرقة، انهمرت دموعها الحارقة كسد انفجر فجأة، لم أكن أزيد على أن أجفف دموعها بأصابعي أحيانا، وبمناديل ورقية أحيانا أخرى، حين هدأت راحت ترتعش، لم تستطع أن تتمالك نفسها، يداها ترتعشان، فكها يرتجف، أنفاسها تتسارع، رحت أُهَوّيها بكتاب في يدي، وأنا أمدها بجرعات من قارورة ماء صغيرة.

كان حضور أصدقائها قويا، تجمعوا حولها يهنئون ويهدئون من روعها، وحين أحسوا بعنادها أقاموا حولها حلقة واندفعوا يصفقون ويغنون لها، هزها المشهد فابتسمت ماسحة دموعها معيدة ترتيب شعرها وهندامها، اقتربت منها إحدى أستاذاتها مثنية على تميّزها، انسحبنا جميعا إلى قاعة كبيرة أعددناها للاحتفال بهذا النجاح.

حين استوينا في السيارة، ظلت صامتة يلفها الغيم من كل جانب، بقيت

وأنا أحرص أن أسير الهوينى أحترم صمتها، اخترت طريق البحر، وهي ابنته وعشيقته.

انفجرت فجأة تحكي عن ألمها، كأنما تواصل سرد حكاية سابقة، كأنما هي السد الذي ضاق بحمولته فانفجر فجأة.

ساءها أن تحس بيتمها في لحظات فرحها، ولحظات انتصارها.

ساءها أن لا يحضر والداها حتى في آخر دراستها، وهي تتوج بشهادتها العليا في الفن، وقد كان حضورهما إلى جانبها أغلى أمانيها، وأهم عندها من شهادتها.

كان تتويجها باردا، ولم تكن تلوم والدها بقدر لومها أمَّها، هي في نظرها سبب كل مآسيها، لو أرادت لتبعها والدها.

تطرفت أمها إلى حد الجنون، حين رفعت ضد والدها دعوى الخلع، إمعانا في أذيته، كان ذلك بعد سفرها إلى فرنسا، قضت هناك أشهرا كانت مناسبة لتتعرف على رجل نصفه فرنسي ونصفه الآخر تونسي، وقررت أن تقطع كل صلتها بالجزائر، لا تعرف أين تقيم هي الآن، ولا كيف حالها، ماعادت تربطها بها رابطة، كأن لم تتشكل في أحشائها، كأن لم تحملها في بطنها، كأن لم تُرضعها.

هي في الحقيقة لم ترضعها غير حليب اصطناعي، أناقتُها كانت عندها أهمَّ من كل شيء، كانت تصرف من أجلها الكثير لتبقى طافحة بالشباب، تمارس رياضتها، صارمة في طعامها، لا تتأخر عن الرقابة الطبية، تتردد كثيرا على صالونات التجميل، تختار كل عام أروع مناطق السياحة لتقضي فيه عطلتها، لا يتجاوز عملها الإشراف على محلات عطور ورثتها عن والدها.

ولم تحس أن ما كانت تتلقاه من أبيها أبوة ولا حنانا، كانت تراه إشفاقا، لا فرق بينها وبين أي بنت غريبة عنه، كانت تحدق طويلا في عينيه، فلا تلمح إلا

لوحات للمأساة، تشتد قتامتها كلما تقدمت بها السنون، ولم يكن لها من سبيل سوى أن تتمرد أيضا، رحلت إلى العاصمة، حيث اكترت بيتا، وسخرت كل حياتها للفن تسمو به على مآسي الحياة.

قضينا أمسيتنا في التسوق، اشترينا كل ما خطر على البال ليكون في عشنا، وأخيرا أجبرتني على شراء بدلة العرس، اختارتها هي شكلا ولونا، ومعها القميص المناسب، وربطة العنق التي أمقتها تلتف وتتدلى كالمشنقة، أو كصليب كاهن بئيس، ودفعت هي ثمن كل ذلك، حين افترقنا كانت قد راقت تماما وهدأت عواصف حزنها.

24

قبل أن أفتح عينيّ، أحسست بحركة في حديقة المنزل، ثم دقا بدأ خفيفا وراح يزداد بإصرار شديد، لم أكن نائما كما لم أكن مستيقظا، رغم أني نمت باكرا إلا أن التعب مازال يشرنقني، حين فتحت عيني، كان النهار قد أسفر عن وجهه تماما، وتسربت أشعته حتى ضفة سريري السفلى، وقرأت في دقات الساعة سخرية حامضة مني.

تتالت الدقات مرة أخرى، فعجلت إلى الباب، لم أتعود على الزيارات لا في هذا الوقت ولا في غيره، لو كانت والدتي لاتصلت بالهاتف أولا، هل يمكن أنها اتصلت ولم أسمع؟ مستحيل لأن رنين هاتفي يوقظ الأموات، حتى من الأجداث.

ومددت يدي إلى الباب أفتحه، وأصابعي تحاول ترتيب شعري الطويل، وقد تبادر إلى ذهني رجال الشرطة، لا يمكن لملف جريمة القتل أن يطوى بسهولة، وهالني وأنا أراه يسد علي الباب، فركت عيني جيدا، أجل إنه هو، يقف ضخما كتمثال بارد، قبل أن أتلفظ مُرحبا كي أكسر هذا الجمود، أسرع محييا وقد رسم بسمة خفيفة حاولت أن تنفلت من قيود شاربه الكث، وقبعته التي كادت تغطي عينيه.

وأسرع يسلمني استدعاء إلى مركز الشرطة، ويبسط أمامي دفترا صغيرا لأوقع فيه.

لأول مرة يصلني استدعاء بهذا الشكل، ووثقت الآن أنه قد قُضي علي، ودون شك سأقضي سنوات طويلة في السجن، رفقة السفاح وطلبته، وليكن

فهي فرصة حسنة لتعميق مدارك الإجرام الكامن فينا، وحتما سنتخرج بشهادات كفاءة عالية، بل سيكون السجن بالنسبة إلي مدرسة مترعة بالتجارب، مزهرة بالنماذج، ستلهمني عشرات اللوحات التي لم أحلم بها، ولا روح للفن إلا تجربته، بل ما المانع أن أسجل قصصا وروايات؟ وراء كل مسجون حكاية يمكن أن يرتقي بها الفن قولا بالريشة، ورسما بالكلمات، وقد امتلكت الأولى، فلا مانع من أن أخوض الثانية، وقد صقلت لغتي بقراءاتي العميقة في النصوص التراثية والحديثة شعرا ونثرا.

وسريعا اضطربت الأفكار في نفسي ومارت الهواجس، لا يمكن أن يلقى القبض على مجرم بهذه الطريقة، لو كنت كذلك لتم محاصرتي واعتقالي وأنا في فراشي.

رميت الاستدعاء على السرير، وأنا أجلس على الحافة، ثم استلقيت افتح ذراعي عن آخرهما، كأنما أنتظر فرجا من السماء، إلى متى تطاردني هذه المصيبة؟ أهي المصيبة أم أنا الجبان؟ لو سرت على درب أستاذي لكنت الآن شخصية معروفة يحسب لها ألف حساب، لا حرج في أن أكون مجرما، البشر كلهم مجرمون بشكل أو بآخر ولو استطاعوا بنفاقهم إخفاء حقيقتهم.

أسرعت أعد نفسي وأخرج، اتجهت مباشرة إلى بيت والدتي، على ذات الحالة وجدتها أيضا، عجلت إلي تريني الاستدعاء الذي وصلها من الشرطة أيضا، ظللت أسترق النظر إليها، كانت هادئة تماما، كأن لا شيء يشغلها البتة، نسيت التهديد بالقتل، ونسيت الشرطة، ونسيت كل الدنيا، إنها تسمو بصوفية عجيبة.

جلسنا في مكتب الضابط ننتظره أكثر من عشرين دقيقة، كانت كافية لأن ترفع توتري، هيّء إليّ أني مراقب الآن، وأنهم قصدوا وضعي في هذا المكان

لدراسة انفعالاتي، وزاد الأمر هولا صمت والدتي المطبق، والتي صارت أكثر إغراقا في العوالم الصوفية، بصمتها وتأملها.

وأخيرا أقبل، تناهى إلينا وقع أقدامه، فازدادت دقات قلبي، وما كاد يحيّي مبتسما حتى هدأ روعي، جلس إلى مكتبه قبالتنا، اعتذر عن التأخر، ولم يزد على أن أحاطنا علما بإلقاء القبض على المجرم الخطير وعصابته، وأن إطلاق سراحه الأول لم يكن إلا طعما انطلى عليه وعلى أتباعه.

كنت أضحك في سري، لا يعلم هذا الضابط أني من بين رجال السفاح، وأني أجلس الآن معه حرا طليقا، ماذا لو طلب مني أستاذي السفاح أن أزهق روح الضابط المسكين، سأعلقه كجرذ في سلك ثخين، وسيشاع أنه انتحر والسلام.

وتخيلته أمامي يترجاني باكيا أن لا أفعل، وهو يذرف دموعا منافقة، ويذكرني بزوجته وأولاده، لكني كنت صارما، أنفذ التعاليم بدقة، وأهيّء نفسي لذبحه من الوريد للوريد.

وأخرجني من سبحاتي وهو يقف كأنما يدعونا لمغادرة المكتب، هممت أن أسأله عما باح به السفاح حين تمّ استجوابه، وهل هو من وشَى بكل أتباعه؟ وما الذي قاله عن جريمة قتل الفتاة؟ لكني أحجمت وهو يمد يده مصافحا مودعا.

25

كان يوما مشهودا، مدهشا، مختلفا، أترعنا فيه للجميع كؤوسا دهاقا للفرح، عصرناها من كل عناقيد السُكْر، ودوالي الخمرة، كتبنا لكل المدعوين على بطاقات الدعوة "احملوا معكم كل أفراحكم"، وكان الحضور متميزا، رابطة واحدة تجمع بينهم، هي رابطة الفن، موسيقيون، ورسامون، وخطاطون، وأدباء، انتفت هاهنا رابطة الدم، وتدفق بيننا شريان الإبداع، تراكمت حولنا الهدايا، وطوقتنا أكاليل الحب، رقصنا وغنينا، واستمعنا إلى الموسيقى، كانت رنات العود ترفرف بأرواحنا إلى أعلى عليين، ظلت أنغام الكمان تحوم حولي، وظللت دون وعي مني أشرئب بحثا عن المراكشية، لو حضرت، لكان الحفل بطعم الجنة.

لم تشأ والدتي أن تحضر، هذه الأجواء لم تعد تعنيها، غير أن فرحها بفرحي كان أعظم من كل فرح، كنت أخبرها عن كل ما أقرر فعله، فتتقبله بابتسامة ورضى ودعوات لا تنتهي، ولم أشأ أن أزعج خلوتها، أو أخرجها من محرابها، أدرك أن روحها الراقية معنا.

هل كان يمكن لوالدي لو كان حيا أن يكون معنا الآن، يقينا لا، لأنه لو استمر في الحياة إلى هذه اللحظة، فإنه لا شك يكون مدمنا غير قادر على بذل أي جهد خارج إدمانه.

ورغم إصرارها على الفرح، كانت غير ذلك، وحدي من كان يسبر أغوارها، أدرك جيدا أن والديها يحضران الآن أمامها شبحا للحزن والألم، كان الأولى أن تؤمن أن حياتها تبدأ منها، وتنتهي عندها، لكنها بقلب امرأة.

كانت سمرائي حديقة من زهر لا معنى لحياة لا تشارك فيها الجميعَ، النحلَ، الطيور، الناس، الهواء، تغص بماء تشربه وحدها، وتختنق بهواء تتنفسه دون الخلق، وتجرحها الابتسامة لا تراها على وجوه الجميع، كانت إنسانة كاملة الإنسانية، كما هي أنثى مكتملة الأنوثة، تبذل ما وسعها الجهد كي يرتقي الجميع إلى عوالم الفن الراقي، تظل تردد في كل مجلس، لا مجتمع راق إلا بفن راق، فن تريد أن تراه في كلام الناس، وصمتهم، في جهرهم وسرهم، في حركاتهم، وسكناتهم، في أفراحهم وأتراحهم، لكن يتعبها أن تظل وحيدة في مثل هذا الشعور، يتعبها أن تفرح فلا ترى عيون أقرب الناس حولها تفرح أيضا.

ورغم ذلك، ولأجلي كانت تقاوم، تغني وترقص وتصفق وتوزع الفرح على كل الحاضرين، وتبدو بهية، مدهشة، كأنما جمع الله فيها الحسن كله، وكنت أدمن القرب منها، أصفق لها وأهتف من أعماق أعماقي، أمسك بيدها أراقصها، أنثر على الجبين الشامخ كل ما يسر ويبهج ومعه باقات من قبلات.

فستانها كان أبيض باسم اللآلئ، تتدلى ذؤاباته كريش طاووس أمير، عقدها الأحمر يطوق بذراعيه جيدها المرمري، كأنما يغار من قرطها الذي تأرجح عند الكتفين، شعرها يلتف تاجا على رأسها فتبدو سمرائي أميرة للحسن.

وكان الأحبة من رفاق الدرب يحيطوننا بكل الحب، بذلوا كل الجهد كي يملأوا الليلة فرحا، وتفنن كل منهم في تقديم ما يرونه أقرب إلينا فنيا، فكانت الموسيقى موسيقانا، والتشكيل تشكيلنا، والقصائد غزل أندلسي لنا دون غيرنا.

ولم نستسلم لحصار الكرى، حتى أيقظْنا الليل، لتواصل الطبيعة حفلنا الأزلي وفرحتنا الأبدية.

26

دخلنا المطار نسابق الزمن، نجر حمولتنا، تدفعنا أحلامنا لمستقبل أحلى، لا مكان فيه إلا للطيور والفراشات وحقول الزهور المترعة بالشذا والعبير، وسط القاعة الكبرى رأيتها، تسابق خطوها إليّ، ظلت تحضنني حتى نسيت كل مواعيدي، هبت علينا بنسمات من أدعية، وشلالا من قبلات لا ينضب سحرها، قدمت هديتها لسمرائي وغادرت المطار.

تركت سمرائي تنهي الإجراءات ورافقت والدتي خارج المطار أودعها، كان وداعنا دموعا لم أرها بهذا الشكل في عيني أمي، كأنما كانت دموع وداع لا لقاء بعده، ولقلب الأم إحساسه الذي لا يخطئ.

قبل منتصف النهار كنا على متن الطائرة المتجهة إلى وهران، حين ارتقت بعيدا عن الأرض، تمخر عباب الفضاء البعيد، كنت أشد على أنامل يسراها وهي تمد بصرها عبر النافذة كأنما تودع الجزائر البيضاء، المتألقة بفستان فرحها الأخضر، أحسست حبنا أيضا يرقى، ويتعمق، حاولت طرد كل الهواجس والكوابيس، التي تعودت على تعكير نفسيتي، لكنها ظلت تصر على الحضور، كنت أنتظر مفاجأة مؤلمة ليلة فرحنا، ولو تهديدا بأي شكل من أشكال التهديد، وبات قلبي يحوم حول والدتي في بيتها، يمكن للسفاح أن ينفذ وعيده، ولكنه لم يفعل.

دفعت رأسي إلى الخلف، وأغمضت عينيّ حالما، هل كل ما فعلته حتى الآن في الاتجاه الصحيح؟ ما الذي جعلني أتغير فجأة، كانت فلسفتي دوما أن الزواج سجن، ولا يمكن للمبدع إلا أن يحلق كالطائر في أجواء الحرية،

كالشعاع في فضاءات التمرد، ما أقنعني أن سمرائي فضاء لحرية لا تنتهي؟

أطلقت أصابعها وانكمشت على نفسي كأنما أحس بسياط برد قارس تلسعني، تخيلت نفسي محاطا بآلاف الأفاعي، طويت ذراعي ثم بسطتهما فجأة، تلمست حزام الأمان، خلته أفعى تطوق خصري، دفعته عني وكدت أصرخ، فتحت عيني على آخرهما، كل شيء كان عاديا، بعض المسافرين يغط في نوم عميق، بعضهم غاص في كتاب أو جريدة، نظرت إلى جاري وهو ينهي فرك عينيه الناعستين، تبسم ببلاهة، فظهرت أسنانه الاصطناعية التي خلتْ من كل لمسة فنية، لعنت طبيب الأسنان في سري، وعدت أغمض عيني محاولا طرد صورة الأسنان القبيحة.

راكمت عشرات الصور والمشاهد، إن أردت أن تطرد صورة مزعجة عليك أن تهاجمها باستحضار الكثير من الصور المخالفة لها، وتسللت إلى شاشة الذاكرة صورة شاب لمحته في المطار، كان يتأملني طويلا، لم أهتم به في تلك اللحظة، كنت مشغولا بأمتعتنا الكثيرة، يمكن لأي حقيبة أن تضيع منك في كل هذا الزحام، لكن ذاكرتي الآن راحت تستحضره بكل وضوح، كأنما هو يقف الآن أمامي، حتى هو كان مصرا على أن ترتسم ملامحه في ذاكرتي، كانت ملامحه أقرب إلى الجمود، عليها مسحة حزن، كأنما قد خرج لتوه من معركة من معارك الدنيا المؤلمة، أكدتها تجاعيد رست تكشر معاندة على جبينه وحول عينيه.

توقفت المضيفة عند رأسي وهي تنبهني إلى ما أختاره من مشروبات، فضلت قارورة ماء وكذلك فعلت سمرائي، وتناهى إلينا صوت رخيم يصلح للغناء يخبرنا باقتراب وصول الطائرة، تململ الجميع وهم يستعدون، شغلت سمرائي هاتفها، الذي صار لصيقا بها أكثر من أي وقت مضى، كأنما

تنتظر مكالمة في أية لحظة.

رغم كل ما حققه الإنسان من وسائل الرفاهية، ظلت روحه ضيقة، تحتاج سمرائي إلى من يقف إلى جانبها، تحتاج أن تتكلم لتتقيأ مآسيها وهمومها.

هبطت بنا الطائرة، اندفعنا خارجين، توقفت سمرائي تنظر إلى كل اتجاه، تملأ عينيها من الأرض والسماء والأفق البعيد، تسحب كل الهواء الذي حولها حتى تمتلئ رئتها عن آخرها.

إنها وهران

أميرة المدائن

وسحر الجنائن

كل السنوات التي قضتها بالعاصمة لم تنسها مسقط القلب.

ظلت تقلب الطرف في كل الاتجاهات تنظر حضنا دافئا يستقبلها هاهنا، يضمها، يدخلها عش القلب، يذرف دموع الشوق على عتبات الوفاء، ولكن...

27

تغشانا عبق الحياة من كل جانب ونحن نلج عين الترك، جنة هاربة من الخلد، راحت مشاعري تنتعش كأنما هي بستان من ورود غمره ماء ثجاج، ونشطت إلى جانبي سمرائي، وقد فر من ملامحها كل تعب وكل حزن، رأيتها تتنفس بعمق، كأنما ترغب في تغيير كل الهواء الذي في جسمها، ولا عجب إنها تعود إلى أحضان الطفولة، وظللت أنقل الطرف مفتونا بجمال الطبيعة، أتماهى في كل مناظرها العبقرية، أحسها تسكن كل أعماقي.

راكمت الأمتعة في ركن الغرفة، أسرعت سمرائي تتمدد على السرير وقد فتحت ذراعيها عن آخرهما، دون أن تعتمد الوسائد البيضاء، لم أزد على أن نزعت حذائي وأسرعت إلى الشرفة الواسعة المطلة على البحر، الذي تحول الناس فوق رماله الذهبية الدافئة إلى أطفال، أكثر ما يشغلهم لعب صبياني، تجاريهم فيه الأمواج ببراءة كبيرة.

لفت انتباهي زبد يتراكم من بعيد، يجمع قوته ثم يندفع إلى الشاطئ بقوة جبارة، ما يفتأ أن يخور وينكسر كأنما يهزمه الضحك الذي يتحول إلى قهقهات وهو يسعى كي يطوق الرقاب والسيقان، ويحاصر النهود والخصور، وتضحك أشعة الشمس وهي تنعكس على المظلات الملونة، وعلى الرمل الذي يفتح فاه ليبتلع البحر دفعة واحدة دون جدوى، ما أروع الطبيعة! وما أروع حبنا يينع بين جنباتها!

أسرعت ألج الغرفة على صيحة مدوية صدرت من سمرائي، وتعالت ضحكتي وأنا أسرع إليها أعينها على الوقوف، كانت قد خرجت لتوها من

الحمام، فزلت قدمها الصغيرة على البلاط الأملس، وعبثت المفاجأة بشعرها الطويل المبلل فشكلت منه لوحة سريالية.

تسلل الماء البارد إلى صدري، وتسلل خدر النهدين وقد ضغطتهما بيدي، وسرى دفئا في كل الجسد، واحتوانا السرير الوثير الواسع.

قبالتنا على الجدار استوت لوحة لعمر راسم، حرص فيها على إظهار أدق التفاصيل، فجمع بين منظر عمراني لمسجد العاصمة الكبير، وأمامه سوق تعج بالحركة وقد انخرط فيها كل الناس على اختلافهم حتى أطفالهم ونسائهم، وفي الخلف يترامى البحر رَهْوًا وقد عج بالسفن، ورغم الدقة التي حرص عمر راسم على إظهارها في لوحته، إلا أن ألوانه كانت قاتمة حزينة، زرقاء وبنية وسوداء، مع سحاب مركوم فوق البحر، ولا إضاءة إلا ما انعكس من نور شمس مُودّع على قباب ومنارات بيضاء.

حين همت سمرائي بالحديث عن تفاصيل اللوحة وهي المهوَّسة بفن المنمنمات انسحبت لآخذ حمامي أيضا، الذي كان رخاميا مغريا، لقد كانت العلاقة عميقة بين الفندق والاسم الذي أخذه، إن لفظة عَدَن بقدر ما توحي بالرفاهية فهي توحي أيضا بالماضي الجميل، لقد تجلت في فندق عدن كل تلك المعاني، فتعانق فيه التليد والحديث بكثير من الرونق.

سنقضي هاهنا نصف شهر دفع ثمنها أبوها الطبيب، الذي كان قد اعتذر عن حضور حفل الزفاف، وعوض عن ذلك بتقديم حجز أسبوعين في هذا الفندق.

حين ودعتني أمي صباحا ونحن نغادر مطار العاصمة، دست في يدي فاتورة حجز نصف شهر آخر، بنفس الفندق، ماكدت أخبرها بأمر الحجز الأول حتى أسرعت بتقديم هديتها أيضا، والتي لم تكن في حقيقة الأمر إلا

هدية والدي كما تزعم.

ماذا كان والدي سيفعل لو كان حيا؟ كل معطى جديد يصنعُ نتيجة مختلفة دون شك، والدي ليس رقما مهملا، هل سيمنعني من هذا الزواج، لا أظن، هو ممن يقدسون علاقات الحب، سيبارك ويفرح، سينخرط بكل ما يملك في مهرجان الفرح القائم بيننا، سيدعو أيضا أصدقاءه ورفاقه، يغنون معنا ويرقصون، سيولم للجميع ولائمه الفاخرة، سيطلق الرصاص ليدوي في كل فضاء العاصمة فرحا بزواج ابنه الوحيد، وسيقدم لنا الهدايا الفاخرة ويكتري لنا في أرقى الفنادق.

ولكن حين ذاك لن يكون العرس عرسنا، ولا الفرح فرحنا، وقد امحت عنه بصمتنا لحساب بصمة والدي.

لو، ولكنه ليس حيا، فلنرسم مسار الحياة كما نهوى نحن.

28

عجلنا نعد أنفسنا لعشاء الليلة، وهو عشاء فاخر لا شك في ذلك، وقد دعانا إليه أبوها، الذي لم يزد طيلة وجودنا بوهران على مهاتفة ابنته للاطمئان عليها، كانت تنط في كل مكان فرحا بهذا اللقاء، كما لم أرها من قبل، وهي تدندن أغنية فايزة أحمد"أنت وبس اللي حبيبي"، يسعدها أن تزهو يانعة فوق أيكة تمد جذورها إلى أعمق الأعماق، وكنت أكثر انتشاء منها وأنا أضع بعض اللمسات على ملابسها وشعرها، ولا أتردد في أن أرفع صوتي معها عند بعض المقاطع، منتظرا في كل لحظة أن تزم فمي لتمنع النشاز الذي أحدثه في الأغنية بصوتي الأجش.

قفزت إلى مخليتي سمراء مراكش، ودندن صوتها يملأ الغرفة كلها، ويتسلل إلى الفضاء البعيد عبر النافذة المشرعة التي احتضنت اللحظة حسونا غرّيدا فاقع المنقار والريش مع سواد وبياض، ما دريت أطَرِب لصوت حبيبتي، أم استحضر معي المراكشية أيضا؟ لم تكن ألحانها وإيقاع كمانها يهز أعماقي فحسب، بل كنت أخال الجماد من حولي يتحرك، وخيل إليّ أن الطاولة الصغيرة الجوزية المنحوتة في شكل غزالة تدس رأسها بين رجليها قد تحركت أيضا.

واستويت واقفا وسمرائي تلح علي بيدها لنستعد للانصراف، خطوت إلى الباب، لفت انتباهي وجود ورقة مدسوسة تحته، ما الذي تريده إدارة الفندق؟ كان يمكنهم أن يكلمونا مباشرة أو عبر هاتف الغرفة، وماكدت أنشرها حتى جمدت ملامحي وارتجفت أصابعي، وأنا أقرأ بخط ثخين "اذبحها طال انتظارنا".

تراجعت خطوات وقد ضيعت بوصلة التفكير، وأحسست بها تقترب مني، تنحنحت وأنا أضغط الورقة وأدسها في جيبي، لمحت اضطرابي، وسحبا سوداء تراكمت على ملامحي، اقتربت مني، ابتعدت ألج الحمام، أسرعت أغسل الورقة وأدفعها في المجاري، ما الذي يريده مني هؤلاء الأوغاد؟ لماذا لاحقونا حتى هنا؟ لعلهم أطلقوا سراح السفاح، أو أن له أذرعا هاهنا؟ كل شيء ممكن.

كانت سيارة الأجرة تمخر بنا باتجاه حي الحَمْري أقدم أحياء وهران، وأكثفها سكانا، كانت سمرائي تمد عينيها بشغف كبير إلى كل شبر مما تقع عليها عيناها، كأنما تستعيد ذكريات الطفولة، المشتتة هاهنا كأكمام الزهر، كأجنحة الفراش، تتغير ملامحها في كل لحظة فرحا وحزنا، انبساطا وانقباضا، تلوح بيدها محيية محلا أو جدارا أو حديقة أو مؤسسة أو حتى ساحة عامة، للمكان روحه وفلسفته، للمكان تاريخه وذاكرته، للمكان عبقه واستشرافه، لسنا نحن إلا المكان مهما تقادم بنا الزمان.

وكان السائق الستيني النحيف غارقا في ترديد أغنية لِبْلاوي الهواري، المنبعثة بصوت خافت أمامه، يدندن بأصابعه على المقود تارة، وعلى الباب بيده اليسرى تارة أخرى.

كنت وأنا أتابعهما معا أستحضر حلم البارحة، أي حلم ملعون، إنه كابوس أحمق، كنت أهوي من شرف هار، وكلما كدت أبلغ الأرض فغرت فاها من جديد، وكنت أصرخ بجنون، ولا أحد يسمعني غير عصفورة صغيرة ظلت بعيدة بعيدة، هل يمكن أن تكون العصفورة سمرائي؟ وهل يمكن أن يكون الحلم وحيا بما سيحدث لنا، رسالة اليوم مزعجة فعلا، اعتقدت خطأ أني صرت بمنأى عن السفاح اللعين.

ماكادت السيارة تتوقف أمام المشفى حتى ترجلت سمرائي وأسرعت تعانق أباها، الذي ظل واقفا أمام البوابة كعسكري صارم، رغم الابتسامة الخفيفة التي أشرقت باستحياء على ملامحه.

كان أبوها ذا وجه مستدير ممتلئ، أقرب إلى السمنة، يشوب بياضه حمرة خافتة، عيناه عسليتان تفيضان كآبة، حاجباه أقرب إلى الغلظة، وكذا شفتاه، وقد استوى على الأعلى شارب خفيف لم يعتن الحلاق جيدا بتنظيمه، مع إهمال لبعض الشعرات البيض في رقبته، يظهر أنه كان على عجل فلم يراقب نفسه جيدا في المرآة، أو لعل هذا الأمر لا يعنيه أساسا، ألا يميل العباقرة في العادة إلى تقديم الجوهر، فلا تعنيهم كل هذه الشكليات؟

صافحني بحرارة وكذلك فعلت، لكنه سريعا انصرف إلى ابنته التي ركبت إلى جواره في سيارته، وظلت تطرح أسئلتها الملحاحة فلا يرد إلا بإجابات مقتضبة.

ورغم كل ذلك فقد كان العشاء فاخرا، لا أذكر أني ذقت مثله.

29

لم يكن والدي يقضي معنا وقتا طويلا، معظم أيامه كان يقضيها في الخدمة العسكرية، قد يزورنا كل أسبوع أو أسبوعين وربما أكثر، وقد يمتد غيابه أحيانا إلى أشهر متوالية، ولكنه حين يحضر كنت أجد منه كل العناية، يحملني بين ذراعيه أو على رقبته، ثم صرت أسير إلى جنبه، وبقدر ماكان مزهوا بي كنت أنا به مزهوا أيضا، كان يراني رجله وخليفته، وكان يفاخر بي دوما أمام كل من يلتقيهم، وهو يلقي علي لقب الجنرال، وكنت أزدهي جدا بهذا اللقب وأمتلئ غبطة، أبدي أحيانا حركات صبيانية وأنا أضرب بقبضتي في الهواء، وأضرب أحيانا قدمي الصغيرتين على الأرض وأندفع مزهوا بعيدا، وربما ألاكم بعض أصدقاء أبي على وقع تصفيقه.

وكنت أنا أيضا مفاخرا بوالدي، أراه أعظم الرجال، وأشجعهم على الإطلاق، ترسخت هذه القناعة من المكانة التي كان يحظى بها في مدينته بين كل من يعرفه، ومما كانت تحكيه والدتي عنه، وقد كانت ترفعه على الجميع دون استثناء، لدرجة أنها تقسم برأسه في الأمور الجليلة.

ورغم تغير عاطفة أمي لصالح أختي الصغيرة أو الملائكة كما كانت تسميها، ورغم كل ما حظيت به من مكانة لدى أبي أيضا، فإنه ظل نصيري، وظل يراني سيد الدار ورجلها كما يصفني، كثيرا ما ينتصر لي ضد أمي وضد الصغيرة أيضا.

وكان يختلق المناسبات ليقيم لي الأفراح، لدرجة أنه أولم حين دخلت المدرسة، وكان العرس حدثا في كل المدينة حين ختنت، لا يتأخر عن تقديم

الهدايا لي في كل أوبة إلى البيت، حتى امتلأت غرفتي بالملابس والألعاب النادرة.

ومع موت أختي بدأ الانعطاف نحو التغير الجذري، وقد صارت والدتي أكثر التصاقا بي رغم أثلام الحزن العميقة التي بددتها، وصار والدي شرسا في تعامله معي، كنت البديل عن أختي في قلب أمي، وكان ضياعها بالنسبة إلى والدي هوة لا يمكن ردمها، كأنما كان يعاقبني ويعاقب نفسه بما كان يفضلني به عن الصغيرة، وكان أقسى علي وأنا أقف على عتبة الشباب.

كم بكيت بحرقة حين هاجمني كالكاسر المارد وهو يمزق كراسي الخاص الذي كنت أرسم عليه خربشاتي الأولى، ثم وهو يركلني بقدمه الضخمة فيسقطني أرضا، ثم حين جفاني تماما وأنا أرفض أن أنتظم في الجندية، معَيّرا إياي بالجبن.

مذ ذاك بدأت تتكشف لي عيوب والدي، كان مجرد وحش غليظ الطباع، عصبي المزاج، أناني الخلق، لم يكن الناس يحترمونه ولكنهم كانوا يخافونه، وما كانت أمي إلا مخدوعة فيه، أو لعل هواه قد غطى على بصرها فأذعنت.

وغرق هو في جنونه، أو تفجر فيه جنونه، كأنما البركان الذي يأتي دون موعد، غرق في خمرياته وعشيقاته، وتطرف في اقتناص اللذة، يطاردها أنّى كانت، وفي كل الأعشاش، واتخذ لنفسه في العاصمة بيتا خاصا بعيدا عن عيني أمي، يقيم فيه الأيام، وقد يزورنا أحيانا، مازال يحن إلى طبخ أمي، حين تحس به تسرع إلى إعداد ما تراه أقرب إلى نفسه، يلتهمه أحيانا في البيت، ويأخذه معه أحيانا أخرى، وكنت أتأمل والدتي حين يعود وهي تتغير دفعة واحدة، فيشرق وجهها كزهرة ربيعية، وقد نسيت آلامها التي راحت تراودها من حين لآخر.

ويظل أبي يجلس إلى الأريكة يداعب شاربه الكث، يفتله إلى ما أراد من

اتجاهات، يتصفح كتابا أو جريدة، غير مبال بأمي التي تظل كأنثى تستدرج رجلها دون جدوى، أيَّ زمهرير عصف بأعماق والدي فجعله صقيعا، هل فعلا أحب والدتي؟ أم كان مجرد إعجاب، ومجرد غطرسة تملكته في لحظة عابرة، فامتلكها عنوة كما دأب على امتلاك كل شيء؟

شكل لي والدي هاجسا كبيرا زمن فتوتي، وكنت أرسمه دائما فأعبث بملامحه، أمدد أنفه أحيانا أكثر مما يجب، وأرخي شاربه إلى ما تحت رقبته وأسفل من ذلك، وقد أجعل منه أحيانا ربطة عنق، وربما أعود لأرفعه إلى الأعلى فإذا هو حبل مشنقة، وقد أنجز الرسمة في حصة الرياضيات التي كنت أمقتها كما أمقت أستاذها المتعجرف الشبيه بأبي، وكانت الصورة تغادر طاولتي لتحط الرحال بين أحضان كل الطلبة، فيغرق الجميع في وشوشات وضحكات تنكتم وتتفجر، فتثير استياء الأستاذ، الذي يصل إلى سبب ذلك، ويُنزل علي أشد العقوبات، ظنا منه أني أرسمه.

30

باتت نائمة كرضيع في حضن أمه، وبت أعانق لوحة طلبتها سمرائي، لم تجد ما تهديه إلى والدها أغلى من لوحة لملامحه، ظلت تلح علي أن أضع فيها ملامح العبقرية والطيبة التي يشهد له بهما الجميع، اخترت شرفة الغرفة المطلة على البحر، لا رفيق لي إلا قهوة أدمن على ارتشافها، وموسيقى كمان تحلق بي بأجنحة ملائكية طاهرة، وإيقاع أمواج تشحنني بالقوة، وماعدا ذلك فهدوء يدثر المدينة كلها فتنام ملء جفونها، تركت صوره التي زودتني سمرائي بها في جيب حقيبتي، لا أريد أن أبعثه كما رأته الصوارة، يجب أن يبعث على يدي كما رأيته وقرأته في لحظات خاطفة، إطالة النظر تدمير للوحة، والفن اكتشاف وبناء لعوالم جديدة .

بدأت نسمات باردة تدغدغني والليل يدخل نفق السَّحَر، وكنت قد وضعت على اللوحة آخر اللمسات، جرعت ماتبقى في فنجاني دفعة واحدة وقد طال انتظاره، كأنما أسدل الستار عن المشهد الأخير، فرشاتي بيميني على استعداد تام للانقضاض على أي خطأ قد تلمحه عيناي، ضربات فرشاتي عبثية على اللوحة، شجار عنيف بين إشراق وإظلام، منحت لفرشاتي فرصة للاستراحة، مططت أصابعي، مددت بصري لكل الاتجاهات بسرعة، واستويت واقفا وعلى وجهي ارتسمت بسمة انتصار، لقد أتممت اللوحة، لكن ليس كما تريدها سمرائي، لقد أغرقتها في عواصف من الاكتئاب والانكسار، ولم أزد غير ما قرأته على ملامحه يوم التقينا تلبية لدعوة العشاء، آمنت دوما أن الفن هو إمساك بالانطباع الأول، أما ماعداه فهو زيف

وانتحال أقرب ما يكون إلى مدح الملوك والأمراء، ورسم الأثرياء والنبلاء.

راحت تدقق النظر في تفاصيل اللوحة، ولما تنسحب كل فلول النعاس من عينيها، سحبتها منها غيلة، فهمت قصدي أسرعت إلى الحمام، صفعت وجهها بحفنات من ماء، وخرجت تجففه بسرعة، راحت تقلب بصرها في اللوحة من كل الزوايا، وكنت أتابع تقلبات الطقس على ملامحها، صحوا واكفهرارا، تبرق عيناها فرحا، ثم تمط شفتيها وقد زوت عينيها استنكارا.

نمتُ وقد تنفس الفجر، كان لها أن تكمل اللوحة أيضا، لا بد أن تعانقها بحروفيتها المبهجة، حتما ستستحضر اسم والدها، أو لعلها ستقبس من شعر الصوفية كما تعودت.

مساء دخلنا طحطاحة وهران، ولعلها آخر بقعة في المدينة لم ترها، بعد أن قلبت كل الأحياء كصفحات كتاب ضخم، تجولنا في سوقها الشعبي، كان همنا هو البحث عن تحف قديمة، قد لا يعرف الناس قيمتها، والتقينا في أحضانها عشرات الفنانين والمبدعين، شعراء ورسامين وعازفين، وانخرطنا في جلسات للنقاش العام.

وظلت سمرائي كلما وجدت فرصة تتحدث عن المكان بكثير من القداسة، تشير بأناملها إلى كل زاوية رأت فيه شاعرا أو مغنيا، خاصة مغنيي الطابع البدوي، بآلاتهم التقليدية البسيطة، ولكنها العميقة التأثير.

ووقفت لحظات صامتة دامعة العين، تتمتم بأدعية أمام النصب التذكاري المخلد للأربعة والسبعين شهيدا الذين قضوا بتفجير إرهابي قامت به منظمة الجيش الفرنسي، والناس في غمرة الفرحة الكبرى بعيد الحرية والانعتاق.

هل يمكن للفن أن يكون طريق خلاص البشرية من أمراضها وأحقادها؟ من حروبها وصراعاتها؟

وقفز إلى ذهني السفاح الذي لا يعدو أن يكون استعمارا مصغرا، هل يمكن للفن لو دخل السجون أن يصقل النفوس المريضة ويرتقي بها عن انحرافاتها؟ يقينا سيفعل ذلك، من يحب الجمال يحب الخير.

والتهبت الطحطاحة فجأة تصفيقا وصفيرا احتفاء بوصول أول المطربين، واهتز المكان على إيقاع الناي، وقد تهاتفت الناس من كل مكان، هي سويعات يقضيها الشباب في لهوهم قبل أن يسرع إليهم الظلام، فيتفرقون نحو بيوتهم، متخلين عن عاداتهم في السهر الليل كله.

31

لم تكن وهران مسقط القلب وحدها هاجسا مركزيا لسمرائي، كانت أحلامها أيضا ترفرف إلى عش والدها بمدينة تلمسان، بمثل ما كانت تحكي دوما عن وهران كانت أيضا تحكي عن تلمسان، وعن بيتهم القابع في درب الحدادين، وتغرق في وصف الناس هناك، وكرمهم وطيبتهم، وتتوقف عند كل جزئية، وعند كل فرد، وكل عادة ومناسبة، تكاد تنقل إليك العواطف والمشاعر، وروائح الأطعمة والأشربة، ووقع الأغاني والأهازيج.

وكانت تتوقف اللحظات وهي تهم بالحديث عن جدتها كأنما تتحضر لذلك نفسيا وهي تراها قديسة في الصالحين، ثم تقلدها وهي تجمع أرباع الكسرة التي تعدها بنفسها في البيت مغالبة شيخوختها، وتهيم في الحواري المحيطة، لا تستثني أحدا ولو كان ثريا.

ثم تتوقف اللحظات كرة أخرى وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وهي تتذكرها وقد أوهنها المرض، وقد رحلت عن دنيا الناس، وكان أبوها الطبيب الذي دأب على زيارتها والإشراف على علاجها، لا يملك عذرا يقنع به أهله في غياب زوجته إلا أنها مريضة.

والحقيقة أن أمها كانت منتفخة تكبرا وتعاليا، لا تنظر إلى الناس إلا من أعلى، هذا إذا نظرت إليهم أصلا، ولكم أظهرت تقززا ورفضا كلما ألحت ابنتها عليها في مرافقتهم إلى تلمسان، إلى درب الحدادين بالضبط، وما كان أبوها لينطق، وإنما يظل يقلب نظره بين زوجته وابنته، وأحيانا في الفراغ الرهيب، كأنما وقع أسير أخطبوط لم يلتهمه ولكنه لم يرسله حرا طليقا.

أصرت أن نترجل بعيدا عن درب الحدادين، ورحنا نخوض في شوارع وزنقات، كانت سمرائي تتهجى كل ما تقع عليه عيناها، وتلتقط له ما شاءت من الصور، وكنت لا أملك إلا أن أنصت باهتمام وأنا أطوي ذراعي كتلميذ نجيب، وكم كان فرحها غامرا وهي تلتقي بالشيخ إمام مسجد لالَّه راية! وانهمرت عليه تقبيلا على يديه ورأسه حتى أشفقت عليه وهو لا يقدر أن يتماسك في وقفته، لقد كانت فعلا دقيقة في وصفه لي قبل زواجنا، وكانت أكثر دقة في وصف أصابعه التي تعلمت عليها فن الخط.

واصلنا نمخر الأزقة، كان الحي عتيقا بائسا تكاد جدرانه تتداعى، وحتما لن تصمد أمام أية هزة زلزالية مهما كانت ضعيفة، ولم يكن بيتهم أحسن حالا، وقفنا أمامه طويلا نتأمل الجدران والباب الخشبي العملاق، الذي ظل يقف معاندا صروف الدهر.

حين دست المفتاح داخله، رأيتها ترتجف، وصر الباب ثم استكان للصمت، كما استكنا نحن كأنما نلج مكانا مقدسا، فناء صغير تقف فيه كرمة هرمة معاندة، وقد تدلت أذرعها في غير انتظام كثعابين هالكة، وتوزعت في جهاته أبواب لا شك أنها لغرف كان يتوزعها قاطنوه، وفي الركن الأيمن مبنى صغير منعزل، لعل به حماما جماعيا، ولعب الزمن بتماسك اسمنت الأرضية فشققه وصنع فيها فجوات وحفرا.

لزمت الصمت المطبق، كنت أهم كل مرة أن أسأل أو أعلق، غير أن عواصف الحزن على وجهها كانت تسرق مني كل جرأة على فعل ذلك، وكانت هي أيضا لا تنبس ببنت شفة، تشرنقها الدهشة من كل جانب، وما كنت أملك سوى أن أحترم صمتها وأحترم حزنها.

هنا ولد أبوها وترعرع وحلم وتمرد وتفوق على أقرانه من أصحاب

الدارات والقصور، هنا أحب الناس والحياة، هنا امتلأ قيما سامية راقية، و.. وهناك انتحرت كل أحلامه وآماله، وضيع كثيرا من شيمه.

لم يعد الطبيب الحالم الآن إلا آليا يسير بتؤدة، وينظر بجمود، يدخل عيادته كل يوم، يفحص مرضاه، يوجههم بصوت خافت، يعود أدراجه إلى البيت على ذات الطريق، لا ينتظر شيئا سوى الموت، قصور السعادة أعماقنا، أما ما عداها فهي أصباغ وأوهام.

32

أربعة ألوان تتدرج في اللوحة الأخيرة كما أسمتها سمرائي، سواد يستوي في الأسفل يتداخل مع زرقة تتدرج حتى تصير سماوية باهتة، وفي خضمهما يتعانق حرفا الطاء والسين، مع سيطرة واضحة للأول الذي تكاد إشالته تصير سيفا لماعا أو رمحا حادا، ويمتد حرف السين أحيانا بأنواع مختلفة من الخطوط خاصة الكوفي منها بأشكاله المختلفة، وتتهشم أسنانها أحيانا وقد غرقت في السواد والزرقة كأنها بقايا غابة التهبت ثم جرفتها الأمطار.

وفي الأعلى خضرة تكاد تستوي على العرش، لولا نقاط حمراء تبرق هاهنا وهناك، يكاد حرف الألف وهو يشرئب إلى السماء منتصب القامة خطوطا معروقة ظاهرة أحيانا وباهتة أحايين أخرى، يكاد يمثل خلفية للّونين معا.

وتكاد اللوحة تشكل طبقتين يفصل بينهما خط رفيع من منمنمات مذهبة، يجعل اللوحة وأنت تتأملها من بعيد تبدو عروسا بحزام ذهبي بديع، وتخال الحروف في المستويين معا مائجة راقصة، في الأسفل مسحة حزينة باهتة، وفي الأعلى إشراق وفرح، كأنهما فصلا الشتاء والربيع وقد تجاورا تآلفا وتنافرا، تدهشك ضربات الريشة السريعة الراقصة، تبهرك نقاط الضوء المرتعشة اطمئنانا ورعبا، تهتز من أعماق أعماقك لتقول شيئا، ولكنك لا تقدر أن تقول شيئا، إنها فعلا فوق القول.

بأي سر يجب أن تبوح هذه اللوحة؟ وبأي الأدوات أستطيع استنطاقها؟ وظللت أقلب الطرف وأستحضر كل معارفي الفنية والفلسفية، مع محاولة استحضار دلالة الحروف، والربط بين الألوان ودلالتها وهي هاهنا أمامي

مشاغبة، مدهشة، محزنة، مفرحة، مهيجة، مقلقة، مهدئة، حكيمة، حمقاء، في السواد حكمة تنتهي للفناء، وفي الخضرة والزرقة راحة ودفء واسترخاء، ويعد الأحمر من الألوان الضوئية، رمزا للحياة.

ظلت سمرائي تجلس على حافة السرير، يتعانق ساقاها وهي في سروالها الأبيض، ويتعانق ذراعاها العاريان وهي في قميصها الأسود، لا تكف عن ابتسامة انتصار ساخرة، وهي تشهد هزيمتي النكراء مع لوحتها.

في المساء ونحن نجلس على الشاطئ وقد هبت نسمات باردة، وصار للبحر هيجان كأنما ضاق ذرعا بالبشر فقرر أن ينهي لعبته معهم، كانت سمرائي تعبث بالرمل المبلل، تغرس فيه قدميها الصغيرتين، تراكم فوقهما رملا، حتى إذا ما فاجأها الموج يمحو عبثها تاركا عشين صغيرين، وأحلم بقدميها يامتين عاشقتين تتغزلان استعدادا للتزاوج.

لن نرجع إلى هذا المكان من الغد، سنعود أدراجنا إلى العاصمة، مازالت تواجهنا عقبات كثيرة، إعادة تهيئة البيت، والبحث عن عمل نقتات منه، متطلبات الحياة كثيرة، خاصة لمن يعشق عالم اللوحة والألوان، إن لم نجد عملا قارا في الإدارة قد تلجأ سمرائي إلى بيع بعض ممتلكات أمها، وهي وريثتها الوحيدة لنفتح معا ورشة للرسم، وفي أسوإ الحالات سنهاجر إلى أوروبا، حيث يقدر الناس الفن، ويثمنونه.

لكن سمرائي فاجأتني حين أخبرتني أنها أحرقت كل سفن العودة إلى العاصمة، وهران هي أندلس الفن، وهران جنة الخلد بملائكة الأرض، ضحكت في أعماقي مؤيدا، وأنا أتذكر كل الإغراءات التي يمكن أن تحاصرك هاهنا، وأنا الذي تفجرت كل ينابيعي نحو الأنثى على شواطئها، وفي منتزهاتها، فعلا لا أنوثة إلا بوهران.

كان والدها قد سعى لدى بعض معارفه لنشتغل مستشارين فنيين بمقر الولاية، وهي فرصة للاستقرار وضمان لقمة العيش ولو مؤقتا، بقدر ما يحتاج الفن للرفض والثورة والتمرد يحتاج أيضا لاطمئنان وأمن.

ستفجر وهران عبقريتي الفنية، سأخوض هاهنا تجارب لا نهاية لها في الرسم، التقطت مئات من الصور لملامح مختلفة، لو كنت مهتما بالصورة لشكلت بها معرضا كبيرا، لكنها ستكون منبعا ثَرّا لرسم الملامح، هنا بوهران يدهشك جمال الأنثى الآسر، يتخطفك بسحر عجيب، جمال لم يخلق إلا لوهران، وهران أميرة المدائن.

33

وقعت علينا المفاجأة كالصاعقة الماحقة ونحن نعود إلى العاصمة، اختلط واوي وميمي كثعبان البواء، صرت مجرد هاء مكبلة من كل الجهات، وهاجمتني جيوش الملل دفعة واحدة، فانزويت في غرفتي لا لا أبرحها، لم أزر أمي لأطمئن على حالها كما وعدتها في آخر مكالمة لي معها، ولم أتفقد أيا من معارفي، وأيا من الأماكن التي اعتدت ارتيادها، وذهبت محاولات سمرائي أدراج الرياح، وهي تناديني بالحرف هـ ساعية لكسر جبيرة الحزن التي لفتني.

لم أكن أرغب إلا في زيارة قبر أبي، لا لشيء إلا لأصرخ فيه وألعنه، سلم شطر عمره للجندية، يزعم متفاخرا أنه كان ضابطا كبيرا، وهاهو الأمر يصلني اليوم بإخلاء المسكن، الذي أنفقت عليه الكثير ليكون عشا لي مع حبيبتي، ظانا أنه أجمل ما ورثت عن والدي، والحقيقة المرة هي أنه ملك لمؤسسة الجيش، وصل لأبي بطريقة لم أفهمها حتى الآن.

حين دخلته عائدا من وهران رفعت الستار الذي أسدلته على لوحة سمرائي المرسومة مدخل الحديقة، مررت عليها قطعة قماش لأنظفها من بعض الغبار الذي لحقها، بدت أكثر لمعانا، لا تحتاج إلى طلاء لماع جديد، أثارت في نفسي ذكرياتي الرائعة، الفن وحده هو الذي يزداد بهاء ورونقا كلما تقادم، الفن وحده يهزم الزمن.

في الغد زرت الوالدة رفقة سمرائي، كانت قد أحدثت تغييرا كبيرا في البيت، صار أوسع حيث فتحت بعض الغرف على بعضها، وتخلصت من كل

الشبابيك الحديدية على النوافذ، واستبدلت باب الحديقة الحديدي الذي صار مجرد قطع خشبية متباعدة، يمكن للقط أن يتسلل بينها، واكتفت بين أشجار الورد بكرسي وحيد، فيما سوت ما تبقى، وجعلت في حافتين منه مشارب صغيرة من الإسمنت.

حين دخلنا الحديقة كانت تجلس على الكرسي الخشبي ترمي الحب إلى أسراب الطيور والحمام التي تزاحمت حولها تأخذ حصتها من الطعام في اطمئنان.

وما كادت تراني حتى رمت كل ما في يدها دفعة واحدة وهرعت إلي، تسبقها سبحتها الطويلة، وأعادني العناق إلى طفولتي الأولى، كانت فرصة سانحة لتفيض أدمعي على عتبات نقائها وطهارتها، كنت أغرز أنفي في أعماق رقبتها أتشمم الصدق والوفاء، استحم من أدران حمقي الدنيوي.

لا شيء في البيت، غير ما يذكرها بأبي، ولا شيء على الجدران غير صور لأفراد العائلة الأربعة، ولا شيء في كل الحياة إلا ما يربطها بالله، لقد قطعت والدتي كل سلاسلها مع الدنيا منذ سنوات، أما الآن فقد بتَّتْ حتى الشعرة الأخيرة، لم يعد في يدها إلا هذا البيت الذي ظل باسم والدي، يذكرها به، لم تشأ أن تحوله إليها أو إلي، ولعلها كانت تدرك حاجتي إلى ذلك، فكانت تومئ أنه سيصير إلي ولكن بعد وفاتها، وكنت أضغطها إلي متمنيا لها طول العمر.

صرت الآن أكثر راحة، الدرس العميق الذي أخذته اليوم من والدتي كان كافيا لأن أزهد في الدنيا، أو على الأقل لا آسى على ما ضاع مني، وكانت حسابات سمرائي ترياقا آخر، وهي تحلم بما سنحقق من رفاهية خاصة حين تبيع ما آل إليها من تركة أمها، التي لا تظن أنها ستعود، كل حلمها أن تهاجر بعيدا، بحثا عن فضاء أرحب وحلما أكبر، نفورا من

حبائلَ طالما تمردت عليها وحاربتها، وهروبا من واقع أراد أن يفرض نفسه عليها، فتمردت لتكون أكبر منه.

34

عدنا إلى وهران الباهية.

انشغلنا صباحا بالإجراءات الإدارية ونحن نتسلم وظيفتينا، وغرقنا مساء في تهيئة البيت الجديد الذي اكتريناه في حي الحمري، كان في الطابق الثاني تنفتح نوافذه على عمارات قديمة، محاطا بمساحات مهملة، صارت مرتعا للفضلات الورقية والبلاستيكية، ولبعض النباتات الشوكية التي تظل تتحدى أقدام الراجلين، يتخذ الأطفال بعض الزوايا للعب الكرة، والتفنن في الصخب والضجيج وممارسة الشيطنة، ويستغلها الكبار للعب الكرة الحديدية.

كان والدها قد تكفل باختيار البيت ودفع كراءه لمدة عام كامل، كما أشرف على إعادة طلاء البيت ليكون مناسبا لإقامتنا، لم نزد على ترتيب أثاثنا، وتعليق بعض اللوحات والتحف، اخترت لوحة فتاة من الشرق للفنان العالمي أوليفر دينيت غروفرOliver Dennett Grover، وهي تغرق نرجسيتها في صفحة نحاسية اتخذتها مرآة لها.

في الوقت الذي كانت رائحة القهوة تتسلل إلينا وهي تطهى على مهل، فتغتال هذا التعب الذي أنشب فينا أظفاره، كنت مع حسنائي نقرأ اللوحة الخالدة معا، وقد تبرجت عن سحر الشرق بكل ما فيه من تحف فنية، أقواس وأعمدة مرمرية، أباريق نحاسية، زراب وفساتين وحلي ساحرة، وجمال أنثوي مدهش، لا يمكن إلا أن يكون نازلا من جنان الخلد، ووراء كل ذلك

حس استشراقي بقدر ما سعى لاكتشاف الجميل عندنا والتعريف به، كان إحدى أدوات الاستعمار حين نظر بعينه ورسم بأدواته.

حين قدمت لي فنجان قهوتي، ثم جلست قبالتي ترشف من فنجانها، مداعبة خاتمها، رأيتها أحلى من فتاة أوليفر دينيت الحالمة، تقوس أشد في الحاجبين، وامتداد في الرقبة، وحور بيّن في العينين، وامتداد عجيب في الذقن، وثنية مدهشة في أسفل الوجنتين، وأسنان ضاحكة راقصة، ثم روح شباب تسري في كل مكان، تفيض من كل جارحة.

ظلت لوحاتي ولوحاتها هاجسنا الأكبر وقد ركمناها في زوايا غرفة الاستقبال، لابد أن نكتري لها محلا آمنا، معظمها كان رسائل مشفرة بيننا تؤرخ لسنوات حبنا الأول، ومعظمها أيضا كان بتوقيعينا، أبدع صورتها بمدارس فنية مختلفة في رسم الملامح، فتعيدها إلي وقد دثرها ألق الخط بمدارسه المختلفة أيضا، لنوقعها في النهاية معها، ليس بتوقيعين منفصلين ولكن بتوقيع مشترك أبدعناه معا.

وكان ليلنا جميلا ونحن نبيت بين أحضانها، والإنسان كائن رحمي، لا يمكنه أن يعيش دون ذلك، رحم أم، فحضنها، فجلد، فبيت، فرحم زوج، فوطن، فـ..، قبر، من رحم إلى رحم، بدايتنا رحم، ونهايتنا رحم.

قبل أن نخلد إلى النوم مخدرين بتعب الرحيل، استعدنا عشرات المحطات من حياتنا، استرجعنا لحظات الحب الأولى، لم أكن أفكر في الأمر من قبل وأنا الذي أخلصت للفن، وتخاصمت مرارا مع والدي الذي كان يريدني جنرالا له سطوته وله جبروته، ومع أمي التي كانت تعجل بي إلى قفص الزواج.

حين خلدت إلى النوم قفزت إلى ذاكرتي نقطة سوداء في حياتي، أسود نقطة

على الإطلاق، أرقتني وما زالت تفعل، تنغرز فيّ كل مرة إلى الأعماق كأنها الخنجر المسموم، تبا للذاكرة التي تخزن مآسينا.

كان والدي يعهد بي إلى جندي يعلمني ولم أتجاوز السادسة من عمري، غير أن اللعين استغل ثقة والدي فيه واعتدى علي جنسيا في حديقة البيت الذي كنا نقضي فيه عطلتنا الصيفية، وكم كان حنقي عاصفا حين عهد بي إليه ثانية، ورغم كل الضرب الذي تلقيته من والدي، رفضت أن أبقى مع الجندي اللعين ثانية واحدة، أفّ والدي، تريدني أن أكون جنرالا ثم تسلمني لمريض حقير؟

35

بدأنا اليوم العمل، بعد أن استقبلنا الأمين العام للولاية، خصص لي مكتبا على أساس أنني المسؤول الرئيس، ومعي سكرتيرة تجاوزت الثلاثين بسنتين أو ثلاث في أقصى تقدير، كما احتلت سمرائي مكتبا مجاورا باعتبارها مساعدة لي وعاملة تحت إمرتي، كان مكتبها صغيرا لا يتجاوز العشرين مترا، ولم يزد أثاثه عن مكتب وكَراسٍ، وخزائن مختلفة الأحجام والأشكال، بعضها محكم الغلق لعلها كانت تحوي أرشيف السنوات الماضية.

وكان مكتبي أوسع، وأثاثه أثمن، وبه أريكة فاخرة لاستقبال الضيوف، وعلى نوافذه ستائر يظهر أنها ركبت حديثا، وله بابان أحدهما فردي خاص بي، والآخر يرتبط بمكتب السكرتيرة، حيث يمكن أن تدخل وتخرج عند الحاجة، كما يمكنها أن تُدخل عليه من آذن له من الزوار.

كانت السكرتيرة على جانب كبير من الهدوء والانضباط، ورغم اليأس البادي على ملامحها، لعلها كانت تخشى العنوسة التي بدأت تدخل بواباتها، إلا أنها كانت نشيطة متقنة لعملها، وربما قد اكتسبت خبرة كبيرة مع من سبقني في هذه المصلحة، أحسست بالاطمئنان لأن الرياح قد هبت لصالحي، وحتما سأتجنب غيرة سمرائي وسخطها.

ورغم كل ذلك كنت أحس داخلي انتفاضة جارفة، أي قفص وضعت فيه نفسي؟ وأنا الذي قضيت ما مضى من عمري طائرا محلقا في الفضاء الرحب، ريحا تعصف أنى شاءت، هل يمكن للقفص أن يقلم سطوتي، ويكبل حريتي، يمكنه أن يفعل مع سمرائي، أما أنا فيقينا سينهزم أمامي.

مساء هداني جاري الملاصق إلى مأوى صغير تحت العمارة يمكن أن أكتريه للوحاتي، ورغم الشطط في سعر الكراء إلا أني لم أتردد، وقضيت كل مسائي أهيئه لذلك، كان يحتاج أساسا إلى تنظيف، وإصلاح للنوافذ والباب، وإلى إعداد متكآت.

آثرت أن أقوم بالجهد منفردا دون سمرائي التي تخلفت في البيت تعد عشاءنا، ليس بإمكانها من الآن أن تقوم بأي جهد متعب، ورغم أن جاري القزم هو صاحب هذا المأوى الخرب، إلا أنه ظل يقف عند رأسي كمسير خبير، يقدم توجيهاته في كل عمل أقوم به، ولم أكن أزيد على أن ألعنه داخلي، وأحلم برسمه في أقرب فرصة.

كانت كتفاه عريضتين غير متناسقين مع جسده، وكانت أصابعه ثخينة مفلطحة، وكذلك كان أنفه، ولعل قدميه لا تختلفان عن أصابع يده، ورغم نتوء جبهته، فقد كانت عيناه صغيرتين، تدوران بسرعة عجيبة في كل الاتجاهات، خاصة حين يركز قبضتي يديه في خصره، فيصير أشبه بزير روماني قديم.

استطعت أن أربح مساحة واسعة وسط المأوى يمكن أن يكون مكانا مناسبا جدا لوضع وسائل الرسم، ويمكن الاشتغال هاهنا في هدوء خاصة حين اعتدال الجو، مع قهوة مضغوطة يمكن أن تسهر حتى الفجر.

عجلت والعرق يغطي كل جسدي، وقد اغبرت كل ثيابي، وتشوهت ببقع الدهن، وصار شعري الطويل الحالك أشعث مما تراكم عليه، أنقل كل اللوحات من بيتي إلى المرسم، بهدوء وصمت كأنما أمارس طقوس دفن شخصية مقدسة، ورغم كل التعب كنت منتشيا وأنا أطمئن على تحفي التي لا يمكن أن تقدر بثمن.

36

الأيام وحدها كفيلة بأن تنسينا الماضي، وكفيلة أيضا أن تخلصنا من الارتباط بالآخرين، أليس من الوهم أن نربط مصائرنا بغيرنا مهما كانت قرابتنا منهم، ونحن ندرك يقينا أن الزمان سيطوينا لنفنى جميعا في أعماقه كذرات رمل في قاع المحيطات، أليس الحيوان أكثر وعيا منا؟ وأكثر ممارسة لقيم الحرية والانعتاق، ما معنى أن أظل في فستان أمي أو برنس أبي؟ فليذهب الجميع إلى سقر إن كان ذلك سيكون على حسابي.

وهذا ما كنت أصر على أن أقنع به سمرائي، لنعيش السعادة لا بد أن أنقذها من شرنقة أمها التي لفتها حولها، ما كانت تقبل أبدا أن تحيا دون أم تسأل عنها وهي حية ترزق، كأنما كانت مجرد لقيطة ربتها إشفاقا عليها، وإنقاذا لها من الضياع.

انسلخت سمرائي عن كل شيء، لم تعد تلك التي أعرفها مقبلة على الحياة، متحمسة إليها، مدافعة عن الفن والإبداع، ساعية أن يسكن قلوب كل الناس، بدأت تشعر بوهن شديد يكاد يقيد كل أحلامها ونشاطها، ودخلت دوامة من الكسل واليأس والاكتئاب، لابد أن تمنح لنفسها عطلة مرضية، لقد اجتمع عليها العمل والحمل، وصارت أميل إلى النوم الطويل.

أكملنا العشاء حملت كاظمة القهوة وانسحبتُ إلى المأوى، الذي كنت أطلقت عليه بإيعاز من حبيبتي "مرسم مقلة" تخليدا للخطاط العربي الكبير "ابن مقلة"، ووضعت شعاره عينا تفيض أنوثة.

حضرت وسائل الرسم، صببت فنجان القهوة، فضضت علبة السجائر،

استللت سجارة، داعبتها بأصابعي، شممتها، أشعلتها، وجذبت منها نفسا حذرا، وأخيرا عدت إليها بعد عقود من الهجر، رشفت من فنجاني وانحرطت في عملي.

رسمت في لوحتي صورة أبي، أقصد استحضرت بعض ملامحه في اللوحة، كان بشاربين كثين متدليين إلى الأسفل، يحيطان رقبته كدثار صوفي شتوي ينضغط عليه بشدة، ثم يمتدان على جانبيه كأنهما ظفيرتا سمرائي، وعملت على أن يكون أنفه مختلفا، وأنا أستحضر دون سابق تحضير أنف الجندي الذي اغتال براءتي وأنا طفل صغير لم أتجاوز السادسة من عمري، كان الأنف أميل إلى الفلطحة والاحمرار، فبدا كأنف عنزة، وأدخلت تقنية القرن في رسم اللوحة كلها، كأنما استعير شكلا جديدا من المنمنمات أو الرسم الفطري، لا أعرف كيف نسمي هذه التجربة، يكفي المتلقي أن يرى بوضوح مئات القرون، متجاورة، متشابكة، متداخلة، حتى أسميت الرسم باللوحة القرنية

وصرخت في أعماقي وأنا أنتبه إلى أن أبي كان دون عينين، كان التجويف داخل الرأس عميقا مظلما، ما فعلت؟ هل هي ذي الحقيقة؟ على اعتبار أن الحقيقة ليست الصور المطابقة للشكل، والدقة لا تؤدي إلى الحقيقة، ثم عبثت بالفرشاة باعتباطية ماكرة، وفي أعماقي ابتسامة، ابتعدت قليلا خلتني أهلت على اللوحة الكثير من الألوان غير المتناسقة، وتعالت في أعماقي موسيقى حزينة.

ركنت إلى الكرسي حزينا، وأطرقت أستعيد لقطات كانت لي مع والدي، رغم أن جثته كانت ممددة أمامي الآن، إلا أن السيجارة لم تغادر شفتية، كان دخانها كثيفا يغطي كل شيء، هل يجب علي أن أعيد رسم اللوحة أيضا؟ كنت في حاجة إلى استغراق نفسيّ عميق أتجاوز به الواقع، لأرسم عالمي السحري

اللاعقلي، كما رسمه سلفادور دالي Salvador Dalí أو مارسيل جانكو Marcel Janko أو حتى بول كوكان Paul Gauguin.

بسطتها صباحا أمام سمرائي، رأتها فعلا متقنة، مختلفة، متميزة، مدهشة، إلى درجة أن مدت أصابعها تتحسس حواف القرون، والضفائر المدلاة، ثم قلبتها فبدت لها أرجوحة تحمل سلالا، وراحت تتبع الخطوط تحاول أن تكتشف الخفي منها.

ما الذي ينقص اللوحة غير لمسات سمرائي، وتوقيع مشترك بيننا، وينتهي كل شيء؟

على عجل شربنا قهوتنا وانصرفنا خارجين، عند الباب تسلمت حبيبتي رسالة غيرت مزاجها دفعة واحدة، وأجهشت بالبكاء قبل أن تفتحها، خابت كل محاولاتي لفك اللغز، رحت أضغطها إلي مهدئا روعها.

كانت قد تخلصت من دموعها ونحن ندخل المكتب، أوصدت الباب، فَضّتْها على عجل، وصار لبكاها نحيب يخترق الجدران، ثم تمددت على الأريكة كالمغمى عليها.

كانت الرسالة من أمها، أرسلتها من تونس حيث تقيم من سنوات وليتها لم ترسلها.

لم تكن تحمل إلا نبأ مرضها الشديد.

وليتها لم تخبرها.

37

لا معنى لفن لا يشمل الناس جميعا.

لا معنى لفن لا يرقى بالإنسانية على معارج الحب والخير والجمال.

ما معنى أن تكون فنانا في محيط من الرداءة القاتلة؟

مذ انتقلنا إلى هذا الحي وهي لا تكف عن إبداء استيائها من المحيط المقرف، من القبح الذي ينتشر في كل مكان، شعارها الذي ترفعه دوما "لا إنسان جميل إلا في محيط جميل"، و"لا إنسان جميل إلا بفن جميل".

وهي دوما تشحنني بمثل هذه القيم التي آمنت بها أيضا، لكني ظللت أؤمن أن الناس هم من يجب أن يرتقوا إلى الفن، لا أن ينزل إليهم ليأخذ بأيديهم كالأطفال الصغار.

كنت أشبه بنبي مهزوم وأنا أقتحم جمعا من الجيران يحيطون جلوسا وقياما بلعبة الدومنو، تسللت من بين شفتي جمل متعثرة، دعوتهم للارتقاء بالحي، بدء من تنظيفه، ودهن جدرانه، وبذر الحياة في مساحاته المتربة، تمتم بعضهم دون أن يبين، واستكان آخرون للصمت الرهيب، أكبرهم اقترح علي أن أرفع القضية إلى الجهات الرسمية.

دخلت البيت أجر أذيال الخيبة، كانت سمرائي تغرق في قراءة كتاب عن تاريخ الفن، صوت موسيقى حزينة كان ينبعث خافتا، جلت بنظري عبر النافذة، نسمات باردة، تشتد حينا تعبث بأكوام الأوراق، وأكياس البلاستيك، غبار يتعالى يزعج المناخر والأعين.

لم أشأ أن أخبرها بفشل المشروع، الجعلان لا تعيش إلا في المزابل،

انسحبت إلى الأريكة وانكمشت على نفسي، كانت لي رغبة شديدة في أن أضمحل تماما، أتكوم حول ذاتي، أنضغط، أصغر، أتكور، وفي لحظة أتلاشى، أصير شعاعا أرحل عبر آفاق الآفاق، هل تموت الأشعة أيضا؟ أم تظل مسافرة في الزمن إلى ما لا نهاية؟ وإلى أين تذهب الرياح؟ يمكن أيضا أن أكون نسمة لا تداعب إلا الزهور والجداول وأفنان الأشجار.

لم تكن سمرائي تقرأ من الكتاب باسترخاء كما تعودت، لم تكن ترسم على ملامحها إعجابا ورفضا واستنكارا ودهشة، وهي حين تقرأ تتفاعل كلية مع كل جملة، بل مع كل كلمة تتهجاها، اللحظة هي تقرأ بقلق يبين عنه الانقباض الذي سيطر على ملامحها، إذن هي لا تقرأ، هي تمارس هروبا، لم تكن تملك القدرة على خوض غمار معركة خاسرة.

وانتهى فعل القراءة، ما عاد مجديا، كمخدر ضعيف لم يحقق سكرا ولا نشوة، أسرعت إليها بكوب ماء، جرعته دفعة واحدة، فكأنما جرعت معه ضمأ الصحراء كلها، وعادت تمد يدها بالكأس لأملأه لها.

بقدر ما كانت حيرتها بالغة في وصول هذه الرسالة التي تطرح عشرات علامات الاستفهام، كانت قلقة بشأن صحة أمها.

أسرت إلي وقد انتصف الليل، أنها لن تتأخر في البحث عن والدتها، التي لم تحدد عنوانها، كانت في حاجة إلى أمها أكثر من أي وقت مضى، إذن ليس من حقها الآن أن تهرب إلى غير رجعة وهي التي مارست الهروب منذ سنوات طويلة.

ظلت أصابعي تتلصص داخل أغمار شعرها مهدئة، لم أكن أريدها إلا أن تنام، أما أمر البحث عن والدتها فمستحيل البتة، لا شيء يسمح لها، وخاصة حالتها الصحية، صارت أميل إلى الخمول والنحافة، وصار على وجهها غبش يغتصب إشراقتها أو يكاد .

38

دخلت مكتبي اليوم متأخرا، كان يلزمني الوقوف مع سمرائي في إعداد بعض شؤون البيت، هبت السكرتيرة تستقبلني، احتضنتني بالعطر الباريسي الذي كانت تضمخ به جسدها، بدت اليوم أجمل، وقد اعتنت أكثر بملابسها، وتصفيف شعرها، وبدت على ملامحها إشراقة فرح غير مألوفة، كأنما حققت انتصارا كبيرا في حياتها، جلست قبالتي محاولة إبداء نهود صدرها، لم تكن تحمل شيئا في يدها كما اعتادت، لأي هدف زارتني اليوم؟

استغرقتُ في تقليب ملفات كانت أمامي، ثم انشغلت بالرد على الهاتف، متلصصا على حركاتها، تجرأت أيضا ووضعت ساقا على ساق، بدت لي أكثر رشاقة، مع طول في الساقين كأنها عداءة، لقد بدأت معركتها إذن، وفي الوقت المناسب أيضا.

ترددت كثيرا في سؤالها عما تريد، لكنها أسرعت تخبرني عن مساعد جديد، يحرص على رؤيتي منذ التحق بالعمل.

وسريعا خرجت دون استئذان أيضا، بدت ممتلئة في تنورتها الرمادية التي فضلتها أن تكون أضيق هذه المرة، وعادت بالموظف الجديد، كأنما كان ينتظرها عند الباب.

لم أزد على أن رحبت به، كان حديث السن، مشرق الوجه، شديد البياض، شديد سواد الشعر، أنيق الثياب، أميل إلى السمنة، ودون استئذان انجرف يقدم نفسه، ومؤهلاته الفنية والإنسانية، مبديا تحمسا كبيرا للعمل معي والوقوف إلى جانبي حتى خارج العمل.

حين أفرغ كل ما في جعبته، وقف مصافحا بحرارة، وخرج.

قلت في نفسي لو كانت أخته مثله فهي حتما أجمل جميلات وهران.

ما الذي يقع حولي؟ تغير كبير ما توقعته، ورغم ذلك كان كل اهتمامي هو سمرائي، علي أن أقف معها حتى تضع مولودها بسلام.

عند الباب وأنا أهم بمغادرة المكتب، التحقت بي السكرتيرة، حملتني هدية إلى زوجتي، عارضة كل خدماتها للوقوف معها ومعي أيضا حتى تشفى، لم أزد على أن شكرتها وخرجت، لمحتها تقف طويلا تتأملني حتى غبت عن ناظريها.

فوجئت بالموظف الجديد أو صفي الدين كما أخبرني، ينزل من سيارته الفارهة، يفتح لي الباب ليوصلني دون أن يكف عن كل عبارات التقدير، فعلا كانت السيارة راقية، تنعشك بالعطور داخلها، وبانسيابها الأملس على الطريق، فلا تملك نفسك إلا وقد حلقت في عالم الأحلام، ولم يكد الفتى يسكت طول الطريق، لعله لم يترك شيئا في حياته وأصوله لم يذكره، ما رسخ في ذهني أنهم ينحدرون في أصولهم البعيدة من إسبانيا، هم أحفاد أولئك الذين فروا من محاكم التفتيش في الأندلس، وأما جدته لأمه ففرنسية.

دخلت المرسم أولا، تفقدت الهدية التي أرسلتها السكرتيرة إلى زوجتي، هزتني المفاجأة وأنا أرى قارورة عطر رجالية، ثمينة فعلا، ولكنها لم تكن إلا لي أنا.

هل هذا الذي قصدته؟ هل هي رسالة واضحة جلية عربون إعجاب، أم عربون محبة وعشق؟ كل شيء ممكن، وهي تستحق ذلك، خاصة كما ظهرت اليوم وقد فاضت أنوثة كانت سرها الكامن مذ رأيتها أول مرة.

39

عدت متأخرا من المشفى، حالة سمرائي حرجة، ستضع توأما بإشراف الطبيب، وقد تُجرى لها عملية قيصرية إن لم يكن الوضع طبيعيا، أخبرني الطبيب أن فقر الدم الذي تعاني منه، وانخفاض الضغط قد يشكل خطرا عليها وعلى التوأم أيضا، دفعت كل ما أملك وما تملك هي من مال، حياتها أهم من كل شيء، كنت متشائما جدا، تعودت على الانكسارات في حياتي، ربما ستكون نهايتي كنهاية والدي، عندي قناعة قوية بأن الناس كما ترث الملامح والأمراض ترث الحظوظ أيضا.

كان والدي عسكريا متغطرسا، ولكنه لم يسعد في حياته، ونقل تعاسته إلى والدتي أيضا، لقد مات تعيسا، قفزت ملامح وجهه إلى ذاكرتي، كانت شفته السفلى قد انغزت بين أسنانه، لعله كان يعضها لألم حاد ألم به، أو ربما لانهيار مفاجئ أصابه، وكان أنفه معقوفا إلى الأعلى، وقد امتلأ منخراه شعرا لعب الشيب ببعضه، وانتفش شارباه كأشواك قنفذ أحس بالخطر، وتناهت إلى أنفي في تلك اللحظة روائح نتنة، لعله تغوط.

لم أنم ورغم ذلك ضبطت منبه هاتفي على السابعة، كي لا يفوتني الاطمئنان على سمرائي، كنت أخشى أن تغرقني سنة في نوم عميق، هاجمتني زوابع من الهواجس القاتلة كادت تدفع بي إلى المشفى ليلا، تذكرت السفاح وعصابته، يمكنه أن ينفذ جريمته في حقها، يمكن حتى أن يذبحها وهي على فراش المرض.

قبل الثامنة صباحا دخلت المشفى منهارا، لقلبي ارتعاش خوف، حين اقتربت من سريرها غشيني دوار رهيب وأنا أراها من بعيد فاقعة لا دم فيها،

وقد استلقت على مخدة واطئة، عيناها مغمضتان غائرتان، فمها مفتوح، اضطربت في مكاني، أخطأت السرير، الغرفة، نعم أخطأت، يقينا أخطأت، لا، أنا في كامل قواي العقلية، هالتني أنابيب الدم والمصل والأوكسيجين وأجهزة مراقبة القلب.

ماتت سمرائي...

امتدت يد إلي من الخلف.

سحبني الطبيب خارج الغرفة، حالتها كانت حرجة، فقدت الكثير من الدم، ضغطها ضعيف، التوأم بخير، ربما تنجو.

علمت كل ذلك من الطبيب، ما عساني أفعل؟

صدمتني السكرتيرة وهي تقف خلفي، هزتني المفاجأة، قرأت في عينيها نظرات إشفاق، وضعت في يدي ظرفا وانصرفت مهرولة، كأنها تهرب من خطر قادم، تلمست الظرف بأصابع مرتجفة، كان محشوا نقودا، وزعت نظري في كل الاتجاهات لم أرها، لقد اختفت، تلاشت.

عدت إلى البيت أجر أذيال الخيبة ، وليتني ما عدت.

كان صاحب المأوى يقف في مدخل العمارة كأنه ينتظرني، حاجباه كانا أغلظ، وكذا شفتاه، وقد أظهرت تكشيرته عن رباعيتين كبيرتين غير متناسقتين، لم أتوقف عنده، واندفعت مباشرة أدخل البيت، لم أكن أملك قدرة لمواجهة أي شيء آخر.

طلب مني الغبي بصوته الذي كان يصلني عبر النافذة، وهو يحدث كل أحد وكل شيء، حتى الجدران الصماء، أن أغادر مأواه القذر، بعد أن صار الجميع يشعرون بوجود الجن، بل ويرونه يعيش بينهم، ولا سبب إلا رسومي الشيطانية التافهة.

40

لم أذهب إلى العمل، كنت مرهقا، بل منهارا، عدت إلى سريري بعد أن زرت سمرائي، كانت أحسن، فتحت عينيها قليلا، وجرعت ماء وعادت إلى النوم، لم أزد على أن طبعت قبلة على جبينها وغادرت.

عجلت إلى الباب أفتحه وقد تناهت إلي دقات خفيفة، حتما لن يكون ذاك القمئ القذر، فاجأني صفي الدين الموظَّف حديثا للعمل معي، كان أنيقا مدهشا، عليه أجود أنواع الثياب، ملأ عطره المكان كله، لماذا جاء؟ ما يريد هذا الأحمق؟ هل أسمح له بالدخول فيكسر الحاجز بيننا؟ ربما يريد أن يمتلكني ليفعل بعدها مايشاء، طبعا لم يذهب ظني بعيدا، فعلا ملامحه تظهر براءة طفولية، لن يزيد طلبه على أن أسمح له بالغياب من حين لآخر.

ركن هداياه التي جاء بها في كيس أبيض على طاولة صغيرة تنتبذ مكانا قصيا، وجلس قبالتي، صببت له قهوة، لم أكن أرغب في الكلام، لكنه لم يتوقف، يظهر أنه ثرثار بامتياز، علمت أنه من عائلة ثرية، وأن اهتمامه بالرسم والخط ليس إلا من قبيل الرفاهية، وانخراطه في الوظيفة ليس إلا لملء الفراغ، كما أن له كفاءة إعلامية كبيرة، مبديا استعداده لفتح موقع على النّت لأعمالنا الفنية.

غادر مودعا بحرارة، بعد الحصار الذي ضربه عليه صمتي، تابعته عبر النافذة وهو يمتطي سيارته، برق في ذهني سؤال خطير، هل يمكن أن يكون هذا الأحمق من أتباع السفاح أرسل لذبحي، أو ذبح سمرائي؟ ضحكت من

هواجسي الحمقاء، لا يمكن أن يكون هذا الشاب إلا طفلا بريئا، ملاكا لا يفكر في أذية شيء حتى الحجارة.

عدت أستوي في أريكتي، تمددت مغمض العينين، كنت أفكر في بيع منزلنا الذي تقيم فيه والدتي، هو ملك والدي حقا، وأمي متشبثة به أكثر من اللازم، تعتقد أن الحفاظ عليه وفاء لزوجها، الذي لم تنسه أبدا، تزور قبره، وتدعو له في السر والعلن، وتتصدق من أجله في كل مرة، لن تبيع البيت قطعا وهي التي هيأته بشكله الحالي، وحتى لو لم يكن كل هذا في الحسبان، فأين نريدها أن تذهب؟

ولكن مهما يكن فإن والدتي ليس لها في الوجود إلا أنا، أنا ابنها، وأنا رائحة أبيه وامتداده، ولن تتأخر عن الوقوف معي في محنتي، ولن تسمح بموت زوجتي وولديّ، سأتصل بها صباحا، حتما ستفرح بأن أصبح لها حفيدان، وستهرع إلى وهران.

أحسست بالانتشاء، كأني وجدت حلا نهائيا لمشكلتي، نبيع البيت، وتنتقل والدتي للعيش معي، وستكون عونا لنا في تربية الصغيرين.

نشطت إلى كأس الماء، جلست على كرسي قريب من النافذة، فوق طاولة زجاجية صغيرة كانت اللوحة القرنية تنكفئ على وجهها حزينة، حملتها برهبة، قلبتها كانت قد تغيرت كلية دون أن أنتبه، بعد أن احتضنتها حروفية رهيبة، دبجتها أنامل سمرائي، ليس فيه إلا حرف الهاء بلون أصفر، وقد أخذ أبعادا مختلفة، وانساب في كل الاتجاهات، واستدار على نفسه، حتى غدا كالمتاهة.

لقد منحها اللون الأصفر خاصة حيث يبهت جفافا وحزنا، الهاء هو اسمي، ما الذي جعلها تعدل عن الميم أو حتى عن الواو أيضا، الهاء طليعة

مأساوية، هو بداية الهم والهوان والهرم، وهو متقوقع على نفسه ملتف كأفعى، ولا يحيلك موسيقيا إلا على أعماق الكهوف والمغارات والقبور.

هل كانت سمرائي تقصد ذلك؟ يظهر أن اللوحة أكبر من كل ما توهمتُ، يمكن أن نشكل بهذا الفعل الفني إن استمر مدرسة كاملة، روحها الأساس الحب.

41

عادت سمرائي إلى البيت، لم تكن إلا سفينة محطمة، عصفت بها الأمواج فجأة باتجاه فج صخري صلب، صارت سمرتها صفرة، وقد نتأت عظام وجهها، وخيّم حول عينيها لون أسود قاتم، كأنما تصحر دمها دفعة واحدة، تقضي الساعات الطوال في نوم عميق، لا تكاد تفتح عينيها إلا لدواء أو طعام أفرضه عليها فرضا، أجلس طويلا أمام سريرها أعد أنفاسها الصاعدة النازلة.

منذ البداية تنازلت عن الولدين لمأوى الطفولة، وتخليت كليا عن عملي، ظلت السكرتيرة تزورني كل مساء، وتبقى معي إلى وقت متأخر من اليوم، لم أكن أعرف ما أفعل من دونها، ما كنت أفقه شيئا في شؤون البيت، ولا حتى في العناية بسمرائي، كان البيت سيغدو من دونها جحيما.

حتى صفي الدين أو صافو كما يحب أن يُنادى ما كان يتأخر عن المجيء، خاصة بعد أن تغادر السكرتيرة، يبقى معي حتى أخلد إلى النوم، بل ويبقى معي أحيانا الليل كله، اكتشفت مواهبه العجيبة حتى في شؤون المنزل.

كان الهدوء يسود البيت كله، وحتى خارجه، لعل البرد الشديد حد من حركة الناس، انتصبت أمام عيني السكرتيرة ببسمتها الساحرة وطيبتها ولطافتها، وقد كانت تتعمد التخفيف من ملابسها كلما زارتني، لا أنكر أن لجسدها فتنة، قد لا أقاوم أمامها كثيرا، ساعداها المتناسقان مع يديها وأصابعها البضة، ساقاها وقدماها الصغيران، خصرها الذي صنع منها سمكة متمردة، لا شيء يمكن أن يمنعها من أن تكون راقصة ماهرة.

لعنت نفسي فجأة وأنا أستيقظ من أحلامي الدنيئة، سمعت سمرائي تصرخ فيّ، خائن...، أحمق،... نظرت إليها وهي تغرق في النوم، إنها تتعافى، هي الآن أحسن لكن فجر الشفاء سيظل بعيدا، قد تحتاج إلى طب أكثر تطورا، في أي بلد متحضر.

زارني والدها ذات صباح، رغم كل اليأس الذي كان على ملامحه، كأنما يحمل هموم كل الدنيا، أصر على أن يأخذ ابنته معه إلى بيته، هو أولى وأقدر على القيام بها، والسهر على راحتها، وقطعا كنت في حاجة ماسة لذلك، أنا أيضا تعبت، وانقطعت كثيرا عن عملي، أحتاج لمن يقف معي.

نمت عميقا تلك الليلة، أغلقت كل منافذ الاتصال، لا هاتف ولا نت، ولا فايس بوك، ولا أية وسيلة أخرى، أعرف أن شخيري قد ملأ عنان السماء، وأنه امتد عبر النوافذ ليزعج نوم بعض الجيران.

استيقظت باكرا، أخذت حماما وعدت إلى سريري، هواجس رهيبة كانت تتقاذفني رغم أن نومي كان خاليا من الكوابيس، وهي حالتي مذ سنوات طويلة، كل الضغوط التي أعانيها يقِظًا تتفجر مآسي لا نهاية لها في نومي.

رغبتي الجنسية كانت مجنونة، حاولت طردها ألحت على الحضور، تقلبت في فراشي، ازداد صراخها، تهيأت لي السكرتيرة في ثوب شفاف تتلوى راقصة رقصا شرقيا شبقيا، أغمضت عيني، خلتها تتسلل إلى فراشي، تناهى إليّ دق خفيف على الباب، هي دون شك، اللعنة وقعت في المصيدة، فتحت الباب، أشرقت علي ابتسامة ساحرة، وامتدت إلى يدي أصابع بضة، ولكن للأسف لم يكن سوى صفي الدين، انسحبت أمامه وأنا ألعن مجيئه المبكر، رغم كرمه الحاتمي، وهو يحمل إلي هداياه، ويعرض علي خدماته التي لا تنتهي، ويغدق علي مدحا كاد يصل حد الغزل.

42

عرجت على سمرائي في بيت أبيها، الذي أخذ عطلته السنوية الآن من أجلها، وجدت ظروفها أحسن وقد استعان أبوها بخادمة تقوم على راحتها ليلا ونهارا، بدأت أحلامي تتسع في عودتها إلى الحياة رغم أنها لم تخرج نهائيا من دائرة الخطر، ترددت بادئ الأمر في أن أطلب منه بيع بعض ما ورثتْ، والسفر بها إلى الخارج، كأنما علم ما يدور في خلدي، حين أخبرني بأسف وحسرة عن جنون أمها في بيع كل ممتلكاتها وتبذيرها في ملذاتها وجنونها.

خرجت أجر أذيال الخيبة، تبا للإنسان، ما عدت أراه سوى مخلوق أناني حقير، ولست أنا أيضا سوى كذلك، لا أحد يوقف القطار حين يسقط غيره.

دخلت مكتبي متأخرا، هرعت السكرتيرة ترحب بعودتي، وهي تحضن جملة من الملفات كأنما تحضن رضيعها، فيرتفع نهداها ليطلا على شرفة قميصها الأسود، شمسا تبتسم من خلف غيوم عابرة، جلست إلى المكتب، وقفت إلى جانبي تكاد تلتصق بي وهي تفتح الملفات الواحد بعد الآخر وتغرق في شرح جزئياته، برغم كل الألم انتشيت، كنت أريدها أن تقترب أكثر، أريد أن أخرج معها الآن إلى حيث نتنشق عشقا.

اللعنة على ذاكرة تنسى بسرعة، مددت بصري عبر النافذة راودتني رغبة في البكاء، والنواح، والصراخ، وتكسير كل شيء، ألم واحد يدمر كل شيء، ما معنى أن نحيا إن كنا نمرض نتألم ونموت؟ إن كنا نفنى ونتلاشى؟ إن كنا نفارق من نحبهم؟ وغرقت في بكاء جارف حتى الانتحاب.

حين انتبهت إلى نفسي كانت السكرتيرة تشدني بقوة تحاول تهدئتي، وقد اقتربت أنفاسها أكثر من رقبتي، قمت من مكاني مبتعدا ألملم دموعي مستعينا بمنديلي الأبيض المطرز، انسحبت خارجة توصد الباب خلفها، دون أن تسحب معها عطرها الباريسي الفاخر، ولا شبقيتها التي ظلت تدعوني خلفها بإلحاح.

مساء زرت مأوى الطفولة المسعفة، كان صغيريّ في صحة جيدة، قبلتهما طويلا، وبكيتهما أكثر، أي ظلم هذا الذي يرتضي لهما يتما مبكرا؟ وأي مستقبل كالح ينتظرهما؟ ماذا لو وضعت البشرية كلها جميعا حدا للحياة، وليمض الكون كما أراد أن يمضي بتعاسته ومآسيه إلى ما شاء له المضي، مادام لا شيء يشبع نهمه لإلحاق الأذى بنا، للإيغال في تعذيبنا، للتطرف في الرقص على مآسينا.

تملكني خوف جارف من أن السكرتيرة ستلحق بي هذا المساء، أو ربما صفي الدين، ما كنت أملك القدرة على لقاء أحد، كان حزنا عميقا متفجرا، كان ألما حادا ذابحا، ولا يصلح ذاك إلا للإبداع، تكفهر السماء ثم تمطر، ثم لاشيء، أطفال نحن تشغلنا الحكايات الغبية الساذجة، لا فرق بينها وبين قطعة سكر.

وجدت نفسي أمام اللوحة، شيء ما يمور داخلي، يتحداني، يتجاوزني، يسخر مني، استسلمت، أعلنت عن ضعفي، نمت هناك، دون أن أغير ملابسي.

كنت أصرخ بكل ألفاظ السباب والشتائم، أسحب والدي الأحمق وقد اكتشفته في بيته يغتصب سمرائي المريضة، لكنه لم يكن ليتزحزح، كان يضحك استهزاء بي، ويوغل في فعلته الشنيعة، ولم تكن سمرائي تبدي

اعتراضا، لأنها كانت منحورة كشاة هرمة.

حين فتحت عيني كان الليل قد انتصف، وقد تسللت إلي نسمات باردة عبر النافذة الصغيرة التي نسيت إغلاقها، وعبرها أيضا كان يصلني مواء قطط تتصارع.

43

رياح باردة بدأت تشتد، كأنما تحذر من اقتراب أمطار غزيرة، كان عزفها يصلني كموسيقى جنائزية رهيبة، تنذر باقتراب الموت، الفناء، القيامة التي لا تذر خلفها شيئا، أصبت بالرهبة، بدت لي الحنفية عبر باب المطبخ المفتوح شاة منحورة، هيء إلي أن أذنيها تتحركان، تثغو متألمة، ثم تصمت، لقد فارقت الحياة، أغمضت عيني، ظلت تلاحقني، تخيلتها تعود ثانية إلى الحياة، تقترب مني، تدعوني أن أموت مثلها.

ما الذي يحدث؟

هل هي حقائق أم مجرد أوهام؟

لا حل إلا أن أواجه هذه المخاوف اللعينة والوساوس القذرة، قمت من مكاني، اقتربت من الحنفية، فتحتها، تدفق منها الماء، غسلت وجهي مرارا، لابد أن أطرد النوم، والكوابيس الحمقاء التي انتقلت من منامي إلى صحوي، ضحكت من نفسي وأنا ألعن الوهم، ودون أن أجفف الماء عني، جرعت عصيرا وقطعة جبن، وعدت إلى فراشي، وفي رأسي صفير مقلق، فتحت جهازي المحمول، دخلت صفحتي على الفايسبوك، اللعنة على الواقع، من حقي أن أحقق أحلامي هاهنا كما أريد.

عشرات طلبات الصداقة، لن أقبلها دفعة واحدة، آن لي أن أفرض شروطي أيضا، بلغتني رسالة من صوفياء، عبرت فيها عن إعجاب شديد بشخصي، بموهبتي، مَن ذي؟ تعرفني دون شك، ترَجتني أن أضيفها، ترددتُ قليلا، ثم فعلت، انهمرت أمطار فرحها كأنما ترقص على إيقاع عزف

الريح الذي خفت قليلا، صوفياء؟! أي اسم مدهش هذا؟!

شبكت أصابعي على قفاي، ودفعت برأسي إلى الخلف منتشيا، بدأت أنسى آلامي، من حقنا أن نفعل أي شيء لنقهر الألم، ولو بالكذب على أنفسنا، مجرد جرعة من مخدر لا أكثر ولا أقل، كيف أرسم صوفياء؟ تذكرت سمرائي، أعدت إلى الذاكرة بسرعة عجيبة لحظات اللقاء الأول، لحظات الإعجاب الأول، يمكن للصدف أن تغير كل قناعاتنا، وهل يملك الإنسان قناعات أصلا؟ أم هي مجرد أوهام لا أكثر ولا أقل؟ قلبت صفحات الذكريات سريعا، كانت سمرائي تجلس في السرير، هي الآن تستطيع أن تأكل دون مساعدة، تستطيع أن تخطو داخل البيت ولو بمساعدة غيرها، خفت الهالات السوداء حول عينيها، غير أنها مازالت شاحبة، وخطر الموت مازال يهددها كما أخبرني والدها.

هل يمكن أن تكون صوفياء هي السكرتيرة؟ أو ربما جارتي الحمقاء، صاحبة العجيزة المكورة؟ أطلت سعداء بصورتها التي تشبه فتاة هندية راقصة، سحبتني إلى عالمها، نسيت الجميع، لها قدرة عجيبة على اصطيادي بكلامها العذب، وأنا الذي أفتن بالجمال في الكلمات، كما أفتن بالجمال في الألوان والملامح، كنت من قبل قد رسمت ملامح سعداء، كانت في نظري أقرب إلى الرمل والصحراء والفروسية، كلما تخيلتها تداعت في ذاكرتي قصائد الحب والغزل التي أدمنت على حفظها مذ يفاعتي.

دق الباب، أغلقت صفحتي وعجلت ألبي النداء، كانت السكرتيرة، لم تعد تتردد في ولوج البيت كما اعتادت من قبل، هدت كل الحواجز بيننا دفعة واحدة، كأنما رجمتها بالصواريخ، وانهالت علي لوما وأنا أتأخر عن طلب مساعدتها في تنظيف البيت الذي لم يعد لائقا في رأيها لإقامة مبدع في حجمي،

فالقبح لا يوحي إلا بالقبح.

في قاعة الاستقبال كانت تنام آخر لوحة صممتها، تقف قريبا من النافذة وقد انعكست عليها أشعة الشمس، وحولها لوحات أخرى، كلها لملامح نسوية تتفجر جمالا وفتنة، بعضها مكتمل، وبعضها الآخر ينتظر لمسات أخرى، أشرقت على ملامحها ابتسامة عريضة، لم تكن اللوحة الأولى إلا صورتها، مدت أصابعها إلى كتفي شاكرة، دغدغني دفئها، سرى إلى أعماق الأعماق، استدارت مرة ثانية إلى اللوحة تأرجح القرط الطويل في أذنها كأنما يقهقه ضاحكا، كان نحرها بديعا وقد طوقته سلسلة ذهبية، يتعانق فيها حرفان عربيات بديعان، الأول هو حاء، ولم أتبين الثاني وقد اندس بين نهديها تحت القميص، هل هو هاء؟ ربما، هل تقصدني؟ ربما، ما رأيت هذا العقد في جيدها من قبل.

44

جحافل من الشكوك باتت تهد قلاع اليقين في نفسي، كلما ضربت أوتادا للاطمئنان عصفت بها ريح الوساوس، لم أشرب قهوتي في البيت كالعادة، اكتفيت بإشعال سيجارة يتيمة باتت تنتظر حتفها في زنزانة سترتي، التهمت نفثات من سحرها، ورحت أنزل درجات العمارة غير عابئ بقطيع الأطفال الذين ملأ ضجيجهم المدخل، ولا بالمياه القذرة التي امتدت نتانتها أفعوانا يفجع الأنوف، بل ولم ألحظ حتى جارتي الملحاحة، وكدت ألتفت خلفي وأنا أذكرها، لعلها تطل اللحظة من نافذتها، فإن لم تكن هناك فهي لا شك مريضة، كدت ولكني لم أفعل، ولفت انتباهي شاب في الثلاثين يقف متكئا على عمود كهربائي، بنفس الوقفة التي رأيته عليها بالأمس أيضا، ورحت أقلب صفحات الذاكرة، لأعيد إليها عشرات الصور لهذه الملامح، وقد رأيتها كثيرا هنا وهناك خاصة في هذه الحارة، ماذا يفعل هذا القذر هنا؟ سألت في نفسي، وأجبت، لعله عاشق لهذه الجارة النتنة، وهل يعشق هذا القذر؟

مررت قريبا منه، رفعت فيه عينيّ، تمنيت لو كان عجينة أمامي حتى أتمكن من إعادة تشكيلة، كان أنفه حادا طويلا، وكانت عيناه صغيرتين غائرتين، يمكن ببساطة إنقاص نصف الأنف ووضعه خلف العينين لتقتربا أكثر.

وما يضيره؟ كل الوجود قرف، كل الوجود قذارة.

ذكرني ارتفاع شفته العليا قليلا بتكشيرة الكلاب، بل بمصاصي الدماء من بني البشر، وارتج علي وأنا أتذكر السفاح، الويل لي، لن يكون هذا إلا من أتباعه، وما وجوده هاهنا إلا للتربص بي وذبحي كما تذبح الشاة، أنا في عرف

عصابتهم خائن مرتد، ولعلهم أصدروا في حكما بالذبح.

جمدت مكاني لا أعرف كيف أتصرف، صار الخوف يكبلني من كل جانب، أغير قراراتي في اللحظة الواحدة مرارا، تعالت الصيحات في مدخل العمارة، ورأيت دخانا كثيفا يكاد يحجب الرؤية، يخترقه العشرات يعدون في كل الاتجاهات.

عدت أدراجي سريعا، كان الجمع ومعظمه نساء يعمل بجد على إطفاء النار التي أنشبت أظفارها في مرسمي، كان الباب الخشبي قد تهاوى كلية، لم تبق منه إلا أجزاء علوية، وكانت ألسنة النار قد امتدت إلى قطع القماش التي أرسم عليها، وكنت قد ركمتها قريبا من الباب، قابلتني جارتي وهي تخرج من المرسم بطلة اقتحمت كل الأخطار لتنقذ لوحاتي، ولكن ملامحها قد أخذت لونا آخر وشكلا آخر، صارت أشبه بحداد بدائي.

تفرق الجميع بعد أن اطمئنوا على سلامة لوحاتي، كنت ألمح صاحب المحل القزم يقف بعيدا يتابع المشهد بشماتة، لا يمكن أن يكون الفاعل إلا هو.

وصلت الرسالة وفهمت، قضيت يومي في نقل كل لوحاتي إلى البيت، تساعدني الجارة، وصفي الدين الذي التحق متأخرا، لكنه غرق كلية في العمل، حتى اتسخت كل ثيابه، وحتى ملامح وجهه، وقد تعانق بياضه بلمسات سود من أثر الحريق، كأنما هو لوحة عبثت بها يد فنان، هو أيضا يستحق لوحة له، لكنها بطعم فتاة جميلة.

وكان صفي الدين كريما جدا حين أخذني إلى حمام معدني مدهش، أحسست داخله أن كل مآسي أيامي تتحلل وتخرج إلى غير رجعة، خاصة وقد أوتي كفاءة عالية في المسد، كنت أقول في أعماقي، لقد أوتي السحر من كل أطرافه.

عدنا إلى البيت في وقت متأخر من ذلك المساء، اكتفى صافو بإيصالي إلى

باب العمارة وانصرف تحت إلحاحي، مازال صاحب المرسم يصلح باب المأوى، وقد علمت أنه قدم ضدي شكوى إهمال ممتلكاته وتخريبها، كان بيتي قد تغير تماما، منحته السكرتيرة لمسة فنية جمالية مختلفة، غيرت ديكور الأثاث، وأزالت طبقات الغبار التي عرشت بفعل الإهمال، وعبق المكان بروائح زكية، فوجئت باختفاء لوحة سمرائي الأولى من مكانها، ليحل محلها إطار به صورتي، الماكرة، قلتها في نفسي واستدرت لأرى لوحة السمراء مركونة في الزاوية.

45

زرت الطفلين هذا الصباح، وقد كان صفي الدين برفقتي، كانا متألقين وقد تعالت مناغاتهما، وأشرقت ابتسامتهما، يركزان نظرهما علي بشكل يثير التعجب، هل يمكن أن يحملا أيضا إحساس القرابة نحوي؟ انخرطت في مناغاتهما وتقبيلهما، كنت كعصفور يطعم صغاره، متى يعودان إلى البيت؟ إلى حضن والدتهما، إلى حضن سمرائي، وهل يمكن أن يحدث ذلك؟ حالتها تتحسن ولكن ببطء شديد، كلما ظهر عليها التعافي انتكست، قبل أشهر من ظهور العلة بشكل واضح، كان يغشاها إرهاق شديد، وكانت تضربها فجأة موجات من دقات القلب المتسارعة، مع اقتراب ظهور العلة كنت ألحظ عليها تيهانا كبيرا.

كنت أحاول إقناع نفسي أن الأمر مرتبط بالحمل وأتعابه، وأنه سيزول بمجرد الوضع، لكن في أعماق أعماقي كنت أرتجف، خوف شديد كان يتملكني، يشد على صدري وبطني، أحس ضربات على معدتي كأن قلبي قد تدلى إليها، صرت أنتظر الخطر بسبب ودون سبب.

احتضنتهما مقبلا، قبلات لا تنتهي، بعضها موقعة باسمي، وبعضها وقعتها بدل أمهما، لم يكف صفي الدين عن أخذ صور لنا في وضعيات مختلفة، حين راحت دموعي تنهمر احتضنني طويلا مهدئا إياي، قبلني على جبيني وخدي ورقبتي، أحسسته أقرب إلي وأنا الذي لم أتخذ لي أصحابا وأحبابا، هو يصغرني بأكثر من عشرين سنة، لكني أحسسته أقرب إلى نفسي من أي أحد.

في الطريق إلى العمل، كنت غارقا في عوالم تمتزج فيها الأحلام بالكوابيس، كنور هلال بائس يحاول أن يتسلل من بين جبال من الغيوم السوداء والرعود المدوية، أغلقت عيني وضغطت عليهما براحتي، وقد خلت شجرةً عسكريا يشهر رشاشه باتجاهنا، ويهم بإطلاق وابل من الرصاص، مرت السيارة بأمان، فتحت عيني لم يكن أمامنا شيء سوى حقول لخضر مختلفة، هُيئت لي أنها لجنود ينبطحون أرضا استعدادا لخوض معركة طاحنة، وخلت السيارة تميل بنا وتكاد تنقلب، تشبثت جيدا بالمقعد، كدت أصرخ، وقد أحسست العرق يتصبب من كل جسدي، مد صفي الدين أصابعه فشغل موسيقى حالمة، بدأت روحي تنتعش وقد دخلنا أولى شوارع المدينة من جهتها الشمالية.

فضلت أن أعود إلى البيت، تملكني شعور غريب بالخوف، لن انتصر عليه إلا بالهروب من كل شيء، عجلت بمجرد أن دلفت البيت إلى لوحة جديدة، وانهمكت في الرسم بكل طقوسي التي تعودت عليها، حين انتصف ليلي كنت قد أكملت مص كل ما لدي من السجائر، وقد استوت اللوحة بكل معالمها، سمرائي كأنما هي مجرد خلفية، بكل البؤس الذي اغتال ملامحها، يحضنها صبياها هلالين متقابلين، تمتد أرجلهم جذورا إلى أعماقها.

سلطت الضوء على اللوحة جيدا، وقد تعانق عليها البياض والسواد، اكتشفت في ملامح الصغيرين حضور والدي الصارخ ، لا فرق، هذا والدي وهو صغير، إنه يستمر في حفيديه، لو رأتهما والدتي ستحبهما كثيرا، ربما ستحبهما أكثر لو كانا بنتين، حتما هي ترغب في تعويض ما خسرته بموت ابنتها، سأنتظر شفاء سمرائي ونرحل إليها، نقضي معها أو قريبا منها أسبوعا أو أسبوعين.

لم ترق لي اللوحة، ولعلها لن تروق لسمرائي حين عودتها إلى البيت، وهل تعود فعلا؟ أقصد هل تعود إلى الحياة فعلا؟ لابد الآن أن أنام، تعبٌ يكفّنني، خدر يثقل رأسي وعيني، غدا سأفكر بالرحيل من هذا البيت، اليوم اقترح عليّ صفي الدين أو صافو كما ينادونه أن أنتقل إلى حيهم الراقي، له هناك بيت مؤثث لا يستعمله إلا نادرا، هو يعيش مع عائلته في دارة كبيرة راقية، حتما انتقالي إلى المستوى الأرقى سيفتح أمامي فرصا أكبر لتحقيق أحلامي الفنية، لكن الانتقال لن يكون الآن، سيكون خيانة لسمرائي.

46

تأخرت في الجلوس إلى الفايسبوك، صرت أكثر إدمانا عليه، استطعت بيسر أن أربط علاقات صداقة مع المئات، عالم ساحر فعلا، في بيتك، وبضربة سحرية على زر يمكن أن تمد جسورا للصداقة والمحبة مع المئات بل الآلاف، يمكن أن تناقش أفكارهم، وتستفيد من آرائهم وتجاربهم، متحديا المكان والزمان، كل شيء يكون أمامك قبل أن يرتد إليك طرفك، بدأت أنسى الحصار الذي ظلْت أعاني منه، بدأت أتخلص من شرنقة الوحدة، من دوامة الهموم التي ما فتئت تحاصرني.

استيقظت متأخرا كسولا، لا أقوى حتى على فتح جفوني، لزمت فراشي متململا، أراود نفسي على النهوض دون جدوى، رن الهاتف النقال، أُولَى لم أَبَه له، أعاد الثانية، لن تتوقف السكرتيرة عن الإلحاح ما لم أرد عليها أو أغلق في وجهها، أخرست صوته وتركته جانبا، أُدركُ أني غبت عن المكتب أكثر مما يجب.

هل أذهب اليوم إلى العمل؟ كانت لي رغبة قوية في الاستقالة، ربما سيقيلونني من تلقاء أنفسهم، اللعنة على العبودية التي يتزاحم الناس عليها، الوظيفة بنت الحاجة، ولا مفر منها للبائسين أمثالي، معنى ذلك أن زمن العبودية لم ينته اليوم، بل ازداد حدة، كلنا عبيد في يد نخاس اسمه الدولة، نتسول منها ما يستر من جوع وعري، ومذلة توهمناها.

مازال الهاتف يرن، لن ترضى السكرتيرة اليوم بغير رؤيتي، حتى لو زارتني، وماذا لو فعلت؟ لم يعد لدي الآن مانع عن أن أغرق في عشقها،

متألق بحبيباتي الافتراضيات، لكن للأسف حبيبات من وهم، هي الحقيقة الملموسة التي لا مفر منها، حتما لن تعود سمرائي إلى الحياة، وحتى لو عادت لن تكون إلا قاربا مهشما، لا أجد مانعا في أن أرتبط بهذه السكرتيرة، وخرجت فجأة روحي من بين أضلعي، استوت فوقي وأنا أحملق فيها مندهشا، لعنتني واختفت، استدرت في مكاني تذكرت صافو، هل يمكن أن تكون له أخت تشبهه، لا شك ستكون أجمل منه، ومادامت من عائلة ثرية ستنقذني من واقعي المزري، نعم لا فن دون معاناة، ولكن أيضا لا فن دون مال.

اندفعت واقفا خشية أن تفيض روحي ثانية.

في صندوق الرسائل المثبت في الباب لمحت ظرفا أبيض، أسرعت إليه بشغف، جمدت وأنا أتصفح عليه العنوانين، كان موجها إلى سمرائي، سمرائي التي لن تتمكن الآن من قراءته، ولن أسلمه إليها، قد يكون كابوسا يقضي عليها، قلبت الظرف، كانت الرسالة من أمها، معنى ذلك أنها لم تمت إلى حد إرسال رسالتها، أية أخبار مفرحة أو مقرحة حملتها هذه الرسالة؟

هممت أن أفتحها ثم تراجعت، ليس من حقي أن أفعل، سمرائي وحدها لها حق ذلك، ولن أسلمها الرسالة حتى تشفى، دسستها في الخزانة وخرجت أمتص سجارتي بنشوة كبيرة.

لن ينجو مذنب بجرمه، كانت الفتاة المقتولة في أبهى حِليَتِها، كأنما هي عروس ليلة زفافها، في ملامحها ابتسامة نصر عريضة، يطوق جيدها عقد من لؤلؤ أحمر يشرق على بياض نحرها، وكانت تمتشق خنجرا مسموما، تتقدم نحوي بخطى ثابتة واثقة، وقبل أن تصل إلي يمتد نصل الخنجر يلتف كثعبان حولي، ثم يذبحني من الوريد إلى الوريد، لم أقاوم، كنت

مستسلما راضيا بما فعَلتْ، بل كنت متلذذا جدا، كنت مغتبطا منتشيا، رغم الغضب الشديد الذي كان يظهر على السفاح القريب مني، وقد ربط فخانته قدماه عن الهروب، لا مفر لا بد أن يدفع الثمن.

حين بلغت المكتب كان كابوس البارحة، والذي أشرق على شاشة ذاكرتي بمجرد أن غادرت البيت، قد تسلل إلى كهف النسيان، ربما إلى غير رجعة، وربما سيعود ثانية وثالثة.

47

تسللت إلى البيت دون أن يفطن لي أحد، سريعا عرجت إلى الحمام منتشيا، فتحت الماء الساخن فتدفق مغردا في الحوض الرخامي الأبيض، وراح بخاره يملأ المكان الضيق، علقت صدريتي وكدت أطلق تصفيرة الانتشاء ثم أحجمت، دخلت حجرتي شغلت جهاز الإعلام المحمول، وعدت إلى الحمام، رحت أنزع ملابسي بسرعة، رسمت على المرآة بسبابتي قلبا كبيرا، هممت أن أغرز فيه سهما ثم أحجمت، وسريعا رحت أصقل وجه المرآة، وأنا أتأمل جسدي، شعرات بيض غزت بحمق صدري وحلمتي فغدت كثلج تناثر على ربوة منسية، مددت يدي أمررها سريعا عليه كآلة حصاد، وانزلقتْ لتعلو بطني المنتفخ ثم تمعن أصابعي الواحد تلو الآخر في سبر أغوار الحبل السري، دفعت بعدها كفي ورحت أمسد بهما جانبي من منتصف الصدر حتى الحزام، شيء من النط في قاعات الرياضة التي انتشرت كالفطريات في المدينة سيعيد إلي مجد شبابي الهارب، أو لا داعي لذلك فأنا مازلت أقطر شبابا.

أسرعت أنزع سروالي وما تبقى على لحمي من ثياب وغطست سريعا في الحوض، متجنبا أن أتأمل ماتبقى من تفاصيلي خشية أن تشهق علي منها فاجعة جديدة، لسعني الماء الساخن فاندفعت إلى الأعلى، ثم أحسست بلطفه فعدت أنغمس في أحضانه كطفل افتقد دفء الأمومة أياما، وتركت لجسدي كامل الحرية في الاسترخاء الكامل.

أغمضت عيني وراحت يداي تداعبان جسدي كمراهق تفجرت فيه

ينابيع الرجولة فجأة، ما أفعله الآن ليس من أجلي ولكن من أجلها، يجب أن ألقى عروسي في كامل بهائي ولياقتي وأبهتي، سأطرد أولا تعب العمل إلى غير رجعة، ثم أمتص من الماء الدافئ حياة جديدة تعطيني نشاطا وحيوية وحمرة في كل جسدي.

شاغبت خيالي ذكريات مريرة، كذبابة ترقص انتشاء على قلقي، انقلب على جنبي الأيمن وغصت في الماء دفعة واحدة، طويت ركبتي وشددت ساقي بذراعي، بدوت كجنين على وشك الخروج، أعدت إخراج رأسي قليلا، تنفست وأنا أمسح الماء عن أنفي، وعدت أضم ساقي مرة ثانية، كان الماء ما يزال يسيل الهوينا دافئا منعشا تبدأ حرارته أشد عند الرجلين وتقل قليلا قليلا في الأعلى، أشرقت عن ابتسامة عريضة وقد قفزت السكرتيرة إلى جنبي، ضغطتها إلى صدري، ارتخيت تماما، وغفوت في مهدي الرخامي الدافئ.

لا أدري لم قفزت صورة أبي أمام ناظري وقد فُصم رأسه عن جسده، دون أن يغادر يديه وقد ضغط عليه بشدة، ضغطت عيني دون أن أغير وضعية استلقائي، أسرعت أفتح عيني عن آخرهما، وأغوص في حوض الماء مرة أخرى، محاولا استحضار ملامح السكرتيرة.

جلست في مكاني أمسد شعري وذراعي، ثم قمت وقد راحت قطرات الماء تنزلق متسابقة على تضاريس الجسد، لم تبد ملامح جسدي جيدا في المرآة وقد دثرها البخار، دثرت جسدي بمنشفة قطنية، انتعلت خفا، وخرجت إلى غرفة النوم.

مددت يدي إلى خزانتي الخاصة، فتحتها، لبست برنس الحمام الأصفر، تأملت نفسي في المرآة بدوت أنيقا، عبثت أصابعي بشعري الكثيف الذي

ينسدل على رقبتي، مسدت وجهي الحليق، عدلت من وضعية ذؤابة الشعر المتدلية تحت شفتي السفلى، ابتسمت، لقد عدت إلى الخلف في سلم الزمن عشرين سنة كاملة، آه لو يعود الزمن بي إلى الشباب، بل قد عاد، فلأعش شبابي.

48

سددت الباب مرة ثانية لأتأكد من إحكام غلقه، لا تزيد غرفتي عن العشرة أمتار مربعة، أجلت فيها بصري، حننت إلى دفء سريري الذي لم يسمح لي الوقت بترتيبه هذا الصباح، أشعلت سيجارة، مدّدتها في المرمدة أعانق دخانها المتأرجح، مددت يدي أشغل الحاسوب، ورحت أتأمل اللوحات التي علقتها على الجدار، روفياء آخر ما رسمت ريشتي، تشرق كالبدر ببشرتها البيضاء، وقد تهدل شعرها الأسود على جانبي صدرها، أحسها تداعبني بابتسامتها العذبة، فأرد عليها بابتسامة عريضة، أميل رأسي كأنما أحاول اكتشاف السر الدفين في شفتيها الرقيقتين، حين عدلت رأسي كنت قد مددت أصابعي لتلامس النظارة السوداء التي رتبتها بعناية فوق شعرها، فكادت تختفي في أغماره، ثم عدت فسحبت أصابعي المتلصصة كأنما كنت أخشى رقيبا، وكبندول الساعة راحت عيناي تتراقصان بين لوحتي روفياء، وصوفياء التي أكملت لوحتها البارحة، وكالعطر الساحر جذبتني رائحة الألوان فتحركت قدماي قليلا، غرست عيني في تفاصيل اللوحة، أقف عند كل جزئية، كأنما أتفحص تحفة تاريخية، ابتعدت قليلا ثنيت ذراعي، ودفعت برأسي إلى الخلف، مططت شفتي وقد بدت على ملامحي علامات الرضا، أسرعت إلى ذاكرتي الرسامة العالمية ماري كاسيت Mary Cassatt، وأنا ألاحظ اهتمامي الكبير بحضور الضوء الاصطناعي في لوحاتي، حتما لو كانت هذه اللوحات في الطبيعة لكان لها طعم مختلف.

آه أيتها الشقراء الشقية، كم ألهمني بوحك! بدا لي صدرها ناهدا أكثر من اللازم، متمردا على الأزرار، وقد ابتسم بياضه بين طرفي القميص الحريري الأحمر، ولعب بصري بين عينيها وصدرها، كانت عيناها مجرتين فيهما سحر لا يقاوم، ولكن فيهما أيضا سر لا يفسر، هل يمكن لهاتين العينين السوداوين، أن تنسجما تماما مع شعرها الأشقر الأملس الذي انساب كشلال ربيعي دافئ على كتفيها، حملت قلم الرصاص دون أن أحول إليه بصري كأنما سحرني، ورحت أدور به عند الصدر مديرا أيضا شفتي وقد زممتهما، كنت أرغب في أن أفجر الزر فينفجر بوح الصدر، وارتسمت على وجهي ابتسامة ساحرة، ثم ارتعشت فجأة وقد رأيت خلف الصورة صورة أخرى لشيطان، طويل الأذنين والأسنان، وأحسست ببخار يخرج منه مندفعا نحو خياشيمي، خُيّل إلي أنه مخدر، اندفعت أعيد القلم إلى مكانه، مرددا في نفسي، فعلا المرأة شيطان، ولكنها شيطاننا الجميل، جلست على حافة السرير غير المرتب، خمنت دائما أن صوفياء تسكن بحي الضفاف، وأنها تعرفني دون شك، هل يمكن أن يسوقني إليها عطر فتنتها؟ وحاسة شمي لعبق الأنوثة لا يخطئ مطلقا، واندفعت ألبس جوربي مدفوعا خلف رغبتي في الخروج، ثم أعدت سلخهما ورميهما بعبثية، ألعن كل شيء حولي.

وسرقني ضوء الحاسوب وقد فتح كل بواباته على مصارعها، فأسرعت أرتمي في حضن الكرسي الأثير، فتحت سريعا صفحتي على الفيس بوك، وقد مرت علي أشهر لا أعرف غيرها، وماكدت حتى وصلتني تحية لبنى، وسريعا طلبتني لميس على الكاميرا، ماعدت أستطيع أن ألاحق كل هذا العدد الضخم من الإناث، مراهقات وطاعنات، ثيبات وأبكار، محصنات

ومطلقات، يرمين بصناراتهن على هذه النوافذ الوهمية علهن يظفرن بكلمة حالمة، أو لقاء دافئ، قفز إلى ذاكرتي هودج الأمير عبد القادر وقد فتحت فيه العذارى كوى مرقعات بأحداق من الحور، لم أشأ أن أتفاعل مع الكاميرا، وقد توالدت النوافذ وغطى بعضها البعض، كانت صوفياء أكثر إلحاحا لا يخلو قاموسها من إغراء جنسي، يثير مكامن الرغبة فيّ، وهو قاموس لا يتوقف عند لغة الكلام بل يتعداه إلى لغة الجسد، تنتقي صورا مثيرة، بل خليعة أحيانا، وزهورا وأيقونات تحاصرني من كل جانب، وأغان وأشعارا من امرئ القيس إلى نزار قباني، ولا أنكر أبدا أني قد تعلمت منها الكثير خلال هذا العام الذي تعرفت فيه عليها افتراضيا، بل كدت أن أصير شاعرا أيضا، أعرف أني لم أخلق شاعرا ولكني خلقت رساما، ويكفيني شرفا أن أكتب بالريشة كما يرسم هو بالكلمات، غير أن شهادة الجميع تؤكد مقدرتي اللغوية، التي تراكمت لدي من مطالعاتي الكثيرة.

انقطع تدفق النت فجأة، عدت فجأة من أحلامي الجميلة، لم ألعن ما حدث، كنت في حاجة إلى حلم آخر، والإنسان في تعريفي مخلوق حالم، فإن لم يفعل فهو في مرتبة البهائم، تمططت حتى سمعت طقطقة مفاصلي، تراجعت إلى الخلف وأغمضت عيني معيدا كل شريط دردشتي مع حبيبتي صوفياء، لقد رسمتها كثيرا، ما كان يهمني جسدها الذي كانت تصفه لي كل مرة، بقدر ما كان يهمني عمقها، أيهم هذه الصوفياء؟ وأي روح تحمل؟ وأي جراح عميقة تنزف في قلبها؟ وهل ما أرسلته لي من صورها هي فعلا لها؟ جذبت نفسا عميقا وقد تراقصت صورها أمامي كاسية ونصف عارية، لا بد أن أرسمها مرة أخرى، تحتاج لمعرض كامل، تتصدره اللوحة الواسطة التي أريدها لها، لابد أن تكون ملامحها إلياذة، لابد أن تنطق بكل الجراح التي

تفتقت في أعماقها.

قمت من مكاني، جذبت نفسا من سجارتي قبل أن تنتهي للزوال، وسحقتها، ثم رحت أعد عدة معركة جديدة مع لوحة جديدة، ويد السكرتيرة الساحرة تمتد فتحول خيالي إليها، وتتصارع الحبيبتان، وتتصارع اللوحتان.

49

لاشيء أتذكره من اسمي غير هـ، ولاشيء يربطني بماضيّ ولا مستقبلي، فأنا لا أؤمن إلا باللحظة الحاضرة، خرجت من غرفتي التي صارت مع الأيام خلوتي ومحرابي، وانصرفت خارجا، رحت أنزل درجات العمارة بهدوء حتى لا تفطن إلي جارتي اللحوحة، وتناهى إلى سمعي وقع حذائها العظمي، استعذت بالله من كل شياطينها، خفضت رأسي نازلا، متلهفا لرؤية الشارع، حين انعرجت نازلا واجهتني، كريح السموم، تبدي كل زينتها، كانت مهتمة بتنظيف الدرجات أمام مدخل بيتها، ليس على جسدها سوى ثوب شفاف، وقد تأنقت في إظهار زينتها، رفعت رأسها والمسلات في يمناها، فبدا صدرها ناهدا شيقا، ارتعش قلبي ثم ثبت مكانه، وأنا أطأطئ رأسي لأعبرها، وصل سمعي سلامها وهي تكاد تلامسني، رددت بتمتمة واندفعت خارجا، كلما مررت بها لفحني من عينيها صهد شبقيتها، كم أشفقت على زوجها العقيم، الذي مصته كما مصته السجائر الرديئة، فغدا يشبه عمود الهاتف الأسود.

أطفال ككلاب مشردة يطاردون كرة بائسة، واجهني الشاب الثلاثيني مقبلا من بعيد، بدا أكثر نحافة، غير أن عينيه لم تكونا غائرتين كما توهمت أول الأمر، ولا أنفه كان يثير الاشمئزاز، لعل خلقته قد تغيرت، أو كنت مخطئا في قراءتي الأولى، لا أدري، حين بلغ العمود الكهربائي اتخذه متكأ، رفع إحدى رجليه وثبتها على العمود كما تثبت رأسه، وقد جمع يديه خلف إليته، بدا الآن على حقيقته التي رأيته عليها أول مرة، هبت نسمات باردة، فعبثت بورق رمتْ

به ليلقى حتفه ببركة ماء آسنة، ظلت لأشهر تنز من خزان اسمنتي عتيق، أخرج الشاب سيجارة وألهبها، فغرق كل رأسه في دخان كثيف.

إلى أين أنا ذاهب الآن؟ تبا للعمل، لهذه الوظيفة المقرفة، لهؤلاء البشر التافهين، كدت استدير عائدا، تذكرت موعدي مع السكرتيرة، لاشك أنها في كامل زينتها اليوم، سيكون يوما رائقا متميزا، نذهب بعيدا حيث عبقرية الطبيعة، نحلم، نغني، نرقص، هل سأتزوجها كما تحلم، لا طبعا، لست مستعدا لأي رابط جديد، سأعشقها بجنون، وأتمتع بفتنتها بعبقرية، وأرسمها حد الدهشة، أما الزواج فهو سجن حقا.

أول شيء فعلت وأنا أعود إلى البيت هو استخراج الرسالة التي جاءت سمرائي من والدتها، لابد أن أفضها، من حقي أن أفعل، لعل بها ما يجب أن يعرف، دق هاتفي، سكرتيرتي دون شك، هممت أن أضرب بهاتفي الأرض، لم تكن هي، إنه صافو، ترددت كثيرا ثم فتحت الخط، انهال علي بكل عبارات التحية والمحبة الراقية دون أن أرد عليه، دعاني أخيرا إلى عشاء فاخر، أعده خصيصا لي في بيته الذي دعاني إلى الإقامة به، ستكون سهرة رائعة دون شك، ولكن... لو كان مع سكرتيرتي يكون أحلى.

جلست على حافة السرير وفضضت الرسالة، حملقت، تعرقت، تسارعت دقات قلبي، تقطعت أنفاسي "بنيتي، أكتب إليك مستسمحة، إني مغادرة إلى العالم الآخر، ولا بد من الاعتراف، يجب أن تعلمي أن أباك ضابط، اسمه ك...." تحت عبارة الأم خُطت ملاحظة، "لقد لفظت أنفاسها قبل أن تكمل إملاء الاسم".

وهويت مغمى علي.

50

مد الحاسوب يديه البشعتين وفجر بضربة واحدة جمجمتي أخرج مخي والتهمه، قرأت على شاشته Formatage، تثاءب الجهاز أمامي وانطفأ من تلقاء نفسه، رفعت بصري، كان العشاء مكوما أمامي وقد كاد يتحلل فيذوب في بعضه البعض، تلاشى الجهاز من أمامي في لمح البصر، بدأت اللوحات التشكيلية تتشقق، ثم تتساقط أجزاؤها وتتكوم كأن يدا تجمعها، اعتلاها صرصور عنيد، ظننته أنا، مددت يدي أتلمس كل أجزاء جسدي، اختفى الصرصور فجأة، صرت صرصورا، اندفعت إلى كوم اللوحات، أتسلل بين شظاياها كأنما أسعى لبعث الحياة فيها، زمهرير شديد راح يعصف في الغرفة، كأن بوابة سيبرية قد فغرت فاها، حاولت أن أتحرك غير أن أقدامي خانتني تماما، راح كل شيء يتلاشى من الغرفة، هدأ الزمهرير فجأة، اعتدلت الحرارة، تحركت أقلب قرون الاستشعار، لا شيء بقي في الغرفة، أحسست بالانهيار، حتى الدموع خانتني، لاشيء حولي إلا الفراغ القاتل الرهيب.

فراغ.. فراغ.. فراغ..

أسرعت أتسلل تحت الباب، عبرت الرواق دخلت الغرف كلها، لا شيء.. لا أحد.. وحده الفراغ.. وحده الخواء.. أين زوجتي..؟ أين ولداي..؟ ما الذي يحدث؟ أين أنا..؟ من أنا..؟ لا شيء إلا الهيكل الأسود، وقرون الاستشعار القلقة الحائرة، اختفت الملامح، أظلم الكون، عصف الزمهرير داخلي من جديد، استمر الصوت يصلني، هـ هـ هـ هـ هـ هـ هـ، لم يكن لي من هم الآن إلا أن أبحث عن بالوعة أتسلل منها

إلى ظلماتي، خانتني أقدامي، جمدت مكاني، والصوت يعصف داخلي، قاسيا.. قارسا.. هـ هـ هـ هـ....

في قلب الدار وقف الجندي الحقير الذي اغتصبني ولما أبلغ السادسة، كان عاريا تماما، إلا من حذائه العسكري الغليظ، وقد بتر فحله من جذوره، على ملامحه غضب وحقد، راح يجري خلفي ليدوسني بوحشية، دون جدوى، حتى ينهار على البلاط من الإرهاق وقد تسارعت أنفاسه وتصبب عرقه.

فجأة رن هاتفي، جمدت مكاني لا أقوى على الحركة، مازال الهاتف يلح في الرنين، رحت أقلب بصري في أرجاء الغرفة الباردة، صمت الهاتف، عم الزمهرير كل مكان، عدت إلى طبيعتي كأني أبعث من جديد، لم أكن أفكر في شيء سوى في الهاتف، وحده يمكن أن ينتشلني من الضياع الذي أعانيه، عاود الهاتف الرنين، كان رنينه هذه المرة مختلفا، أملس ناعما، خطوت أبحث عنه، صمت مرة أخرى، لمحته معلقا في النافذة، من فعل به هذا؟ لا أدري، أشرقت الغرفة برنين رسالة وصلت على هاتفي، أسرعت أفتحه، إنها صوفياء، يا للفرحة! صوفياء حبيبتي، كم أنا بحاجة إليها، وحدها يمكن أن تنقذني من انهياري، وليذهب الجميع إلى الجحيم، الحب وحده يجعل منا أطفالا، الحب وحده يهزم كل خيبات الزمن في أعماقنا، بدأت أنتشي وأنا أقرأ الرسالة، آه حبيبتي كم أنت عظيمة وجميلة! هلمي إلي، أنقذيني أنا أنتظرك، وأخيرا سأراها، سألقاها، سأضمها إلى صدري، أزرعها فيه بساتين للفرح، ما أطول زمن الانتظار، الانتظار القارس البارد الذابح المفجع، وأخيرا جئتِ حبيبتي، وأخيرا جئتِ، سيكون لحياتي طعم آخر، ولون آخر، وعبق آخر، وفرح آخر.

مددت رقبتي عبر النافذة، ما رأيت أحدا في الشارع، كأن القيامة قد عصفت بالجميع، هل معنى ذلك أن كل شيء قد تلاشى في هذا الوجود؟ الوجود ينهار، يتصحر، وليكن مادامت معي حبيبتي، بحثت في الجدران عن صورتها التي صممتها لها لم أجدها، حتى أجزاؤها التي تساقطت وتشظت قد تلاشت أيضا، هل تكفيني اللحظات المتبقية لأن أرسم لها لوحة جديدة؟ مستحيل هذا جنون، هذا عبث، أين هي أقلامي؟ لا أثر لها، لا معنى إذن للوحة جديدة، مددت أصابعي إلى الجدار، تستحق حبيبتي لوحة أعظم من الموناليزا، لكن ما هي ملامحها؟ كيف يمكن أن تأتيني الآن؟ واختلطت في ذهني الصور، والملامح، والألوان، خيل إلي أنها طويلة القامة، ممتلئة الجسم في رشاقة، بسروال جينز، وقميص أبيض مورد، وجهها بَدْرٌ دُري، تدثره هالة شعرها الأشقر المقصوص، عيناها نجمان حالمان مبتسمان، حاجباها لمسة فنان عبقري، خلتها اللحظة تغرد بابتسامتها.

آه

أيتها

يا عصفورتي

كم أحبك

امتلأ الكون بالموسيقى والتغريد.

أيها الكون صمتا فحبيبتي تضحك.

51

ودق الباب فجأة، طرت إليها، أسرعت أفتحه، كانت هي تقف ممتدة القامة كما توقعت، في عينيها ابتسامة الفجر، رغم أن ظني قد خاب بين شقرة العينين العسليتين وحور تتباهى به عيناها الآن، وما تبقى كان ملفوفا في جلباب أسود، مددت يدي مصافحا، كنت أحلم بدفء الأصابع، ورغم القفاز الأسود فإن ذلك قد تسلل إلى أعماقي، ماء سلسبيلا يدغدغ كل خلية فيها، حتى لسانها كان مجلببا أيضا، إنه حياء الكواعب، سحبتها من أصابعها الطويلة إلى الغرفة، نقلت بصري في أرجائها رغبة مني في الاعتذار عن هذا الفراغ، كأني قرأت في عينيها تفهما، أسرعتْ تضمني إليها، أنا الآن أمتطي بساطا طائرا، أقطع كونا أسطوريا لازَوَرْديا، تتشابك ألوان القوزح في كل نواحيه.

ضمتني إليها أكثر، غصنا معا في قبلة مجنونة، رغم النقاب الأسود الذي يمتطي أنفها وينسدل حتى أسفل نهديها الكاعبين، مددت يدي، لا يرضيني إلا أن أكشف السر العظيم، لكنها ظلت تمنعني، وظللت أراود حياءها، وأخيرا بدأت تستسلم، فتحت جلبابها من الأسفل، بدا سروال الجينز كما حلمت به، مددت أصابعي إلى الخصر الدافئ، أغمضت عيني وحلقت بعيدا كطائر فتي يكتشف شواطئ سندبادية، كان القميص الأبيض المورد يمد أنامله إلى السروال دون أن يفلح، تاركا فسحة لبياض الخصر كي يبتسم أكثر، وسكرت بالعطر الباريسي الذي عبق الآن أكثر وأنا أفتح آخر أزرار الجلباب وأتسلل بأنفي إلى الصدر الذي بدا لي هادئا ساكنا، أية شمس ستشرق على

الكون حين ينهار حاجز الجلباب؟ رأيتها تضغطني أكثر وقد تعالت منها غمغمة ظلت تمور في صدرها، وتتسلل عبر أنفها النحيف أنفاسا ونسيما ربيعيا، وأحسست بها تمد ثغرها إلى رقبتي وتطبع عليها قبلة، فعضة خفيفة، ومارت في أعماقي لجج العشق، ومددت يدي إلى النقاب أغتاله حتى تمزق وانهار، وانهرت دهشة، وتمتمت بالاسم، لم يستطع لساني أن يتلفظ إلا بالحرف الأول، صو.. صو.. صو..، أمسكتني أكثر، ضمتني إليها كأنما تخشى أن تفقدني.

دفعتها أرضا، واندفعت مبتعدا، ما هذه اللعبة القذرة؟ ما هذا الوهم اللعين؟ ما هذا الكابوس الذابح؟ ماذا حل بالبشر؟ ما بال هذا الوسخ يفعل هذا؟ مد صافو من جديد يديه إلي يرغب في أن يضمني إليه مرة ثانية، دفعته فانهار أمل في عينيه، ورجاء يسكن كل ملامحه، صفعت الباب خلفي، وأطلقت لساقي الريح، أضرب بقدمي في الفراغ.. الفراغ.. كان السفاح يطاردني بسيارته الرباعية، يمد رقبته عبر النافذة، يضحك بهستيريا، وهو يصوب مسدسه إلى ظهري، يطلق زخات من رصاص تخترق جسدي، كنت خائفا لكني لم أسقط، ظللت أعدو كالغزال، وضحكات هستيرية تأتيني من كل اتجاه، وحناجر مبحوحة تصيح في مسامعي بسخرية، و.. م.. ه.. م.. و.. ه.. و.. ه.. م.. ه.. و.. م.....

سطيف جويلية 2015

عزالدين جلاوجي : أديب وأكاديمي، صدرت له عشرات الأعمال الإبداعية والنقدية، وقدمت عن أعماله عشرات البحوث والرسائل الجامعية، داخل الوطن وخارجه، ويعد من الأسماء التي تخوض غمار التجريب، حاول أن يؤسس لاتجاه جديد في الكتابة المسرحية، أطلق عليه مصطلح مسردية، من أهم أعماله:

الرواية :
1. سرادق الحلم والفجيعة
2. الفراشات والغيلان
3. راس المحنه 1+1=0
4. الرماد الذي غسل الماء
5. حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر
6. العشق المقدنس
7. حائط المبكى

القصة :
8. لمن تهتف الحناجر؟
9. خيوط الذاكرة
10. صهيل الحيرة
11. رحلة البنات إلى النار

المسردية/ المسرحية:
12. النخلة وسلطان المدينة
13. رحلة فداء
14. غنائية الحب والدم
15. البحث عن الشمس

16. ملح وفرات
17. حب بين الصخور
18. الفجاج الشائكة
19. هستيريا الدم
20. التاعس والناعس
21. الأقنعة المثقوبة
22. أحلام الغول الكبير

أدب الأطفال:
23. أربعون مسرحية للأطفال
24. خمس قصص للأطفال

الدراسة النقدية:
25. النص المسرحي في الأدب الجزائري
26. شطحات في عرس عازف الناي
27. الأمثال الشعبية الجزائرية
28. المسرحية الشعرية في الأدب المغاربي المعاصر
29. تجليات العنف في المسرحية الشعرية المغاربية
30. وقفات في الأدب الجزائري

للاتصال بالمؤلف
0550443030
djelaoudji@yahoo.fr